
كنوز الملك سليمان
قصص عالمية
Bibliotheca Alexandrina
0118252

قصص عالمية



تأليف

السير رايدر هجرد

ترجمة

سيف الدين الخطيب

دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع
طرابلس لبنان : ص.ب ٥٢ - تلكس Issam LE ٤١٩٧٨
هاتف : ٤٣١٩٥٢ (٠٦) - ٤٤١٢٨٢ (٠٦) - ٦٠٢٠٦٤ (٠٦)



دار الشمال
للطباعة والنشر والتوزيع
طرابلس - لبنان - فاكس : ٦٠٢٠٦٤ - ٦ - ٩٦١
التل - عرجة سنتر : ٤٣١٩٥٢ - ٦ - ٩٦١
المعرض - بناية لا سيتيه : ٦٠٢٠٦٤ - ٦ - ٩٦١
الصاغة : ٤٤١٢٨٢ - ٦ - ٩٦١
خليوي : ٠٣/٢٦٣٤٠٠

الطبعة الثانية
١٩٩٦

لقائي مع السير هنري كيرتس

إنه من الغرابة في شيء أن أجدَ نفسي أمسك بالقلم ، وأنا في الخامسة والعشرين من عمري ، لأكتبَ في التاريخ .. ولستُ أدري أيّ نوعٍ من التاريخ سيكون هذا الذي أكتبه بعد الانتهاء من الكتابة .

لقد أنجزتُ كثيراً من الأعمال الرائعة في حياتي .. هذه الحياة التي تبدو لي طويلة ، حافلة بالأعمال .. ولعلّ مردّ ذلك إلى أنني بدأتُ عملي وأنا شابٌ يافع .. لقد مارستُ حياةَ العمل وأنا في هذا العمر الذي يكون فيه أولادٌ آخرون في المدرسة ، وذلك لأكسبَ عيشي كتاجرٍ في أفريقيا .. كنتُ أزاولُ مهنةَ التجارة والصيد والقتال ثم أخيراً اتجهتُ نحو العمل في المناجم .. ورغم كل هذه الأعمال فإنني لم أستطع تكوين ثروة من المال إلا منذ ثمانية شهور .. ورغم أنّ هذه الثروة كبيرة ، وإن كنتُ

لا أعرف كم تبلغ ، فإنني لا أعتقد أنه باستطاعتي الاستمرار في هذا العمل لمدة خمسة عشر أو ستة عشر شهراً أيضاً من أجل الحصول على مزيدٍ منها ، ولا حتى إذا عرفتُ أني سأخرج من هذا العمل سالماً في النهاية.

ولأبدأ القصة الآن ..

إنني آلنْ كواتِرْمنْ ، من دوربان في ناتال ، سيدٌ محترم ، أعاهد على قول الحقيقة ، الحقيقة كاملة .. ولا شيء غير الحقيقة .

لقد مضى ثمانية عشر شهراً على لقائي الأول مع السير هنري كيرتس والكابتن جود .. وبعد قضاء أسبوع في كيب تاونْ ، قرّرتُ العودة إلى ناتال بالسفينة . وكان بين الأشخاص على ظهر السفينة ، شخصان لفتا نظري . أحدهما سيدٌ في الثلاثين من عمره ، وكان من أضخم وأقوى الرجال الذين عرفتهم في حياتي.. له شعرٌ أصفر.. ولحيةٌ كثيفةٌ صفراء.. ووجهٌ صافٍ نقي .. وعينان رماديتان واسعتان غائرتان في رأسه .. وفي الحقيقة ، فإنني لم أرَ رجلاً بمثل هذا الشكل الحسن .. لقد بدا

وجهه مألوفاً لديّ .. وهذا ما جعلني أفكّر بشخصٍ رأيته من قبل .. ولكنني، وفي هذا الوقت، لم تسعفني الذاكرة في تذكّر مَنْ كان هذا الرجل .. كان اسمُ هذا الرجل الضخم: سير هنري كيرتس.

أما الرجلُ الآخر الذي كان يقفُ متحدّثاً إلى السير هنري كيرتس، فقد كان قصيراً وأسمر ومختلفاً تماماً عن رفيقه .. وخُيّل لي أنه ضابط في إحدى السفن .. وكنتُ مُصيباً في تخيُّلي لأنني علمتُ بأنه كان ضابطاً ترك خدمةَ الملك الآن بعد سبعة عشر عاماً في البحر .. واكتشفتُ أنّ اسمه كان جود .. الكابتن جون جود .. كان رجلاً عريضاً، معتدل القامة، وله شعر أسود .. وكان إلى حدٍّ ما يلفت النظر إليه .. فهو رجلٌ نظاميٌّ جداً، وناعمٌ جداً، ونظيفٌ جداً، وكان دائماً يضعُ نظارة واحدة على عينه اليُمنى .. ويبدو أنّ هذه النظارة قد رافقته طويلاً لأنه لم يكن يربطها بخيط، ولم يكن ينزعها عن عينه إلا عندما ينظّفها .. وقد اعتقدتُ بادىء الأمر أنه كان ينام بها، ولكنني اكتشفتُ خطأ هذا الاعتقاد فيما بعد .. فهو كان يضعها

في جيبه عند النوم مع طقم أسنانـه (لأنه فقـد أسنانه الطبيعية واستبدلها بطقم اسنان اصطناعية) .

نزلتُ أنا والكابتن جود لتناول الغداء معاً ، وهناك وجدنا السير هنري كيرتس وقد سبقنا .. وما أن جلسنا حتى بدأتُ الحديثَ أنا والكابتن جود عن الصيد وأشياء أخرى، وبعد ذلك انتقل الكابتن في حديثه إلى الفِيَلة .

ـــ « يا سيدي » ، صاح شخصٌ ما كان يجلس بقربي ، مُوجّهاً كلامه للكابـتن ، « لقـد وصلتَ إلى الرجل المناسب لهذا الحديث ، إنّ كواترمن سَيُخبرك عن الفيـلة أفضل مما يستطيع أيّ شخصٍ آخر » .

أما السير هنري ، الذي كان يصغي بهدوء تام إلى حديثنا ، فقد أظهر بعضَ العلامات من الاستغراب والدهشة .. ثم قـال بصوتٍ منخفض وهو ينحني إلى الأمام عبرَ الطاولة : « عذراً ، سيدي .. أعذرني يا سيدي .. هل اسمك آلن كواترمن ؟ » .

فأجبته بأنه كذلك .. ولم يقُـل الرجل الضخم شيئاً آخر ،

ولكنني سمعته يُتمتم : « سعيد الحظ » .

وانتهى الغداء .. وفيما كنا نغادر طاولة الغداء ، اقترب السير هنري مني وسألني إذا كان بإمكاني الذهابُ إلى غرفتـه لتدخين غليون ، فوافقت .

وهكذا جلس ثلاثتُنا وأشعلنا غلايينا .. وهنا خاطبني السير هنري كيرتس قائلاً : « يا سيد كواترمن .. في العام الذي سبق العام الماضي ، وفي هذا الوقت ، كنتَ على ما أعتقد في مكانٍ يُدعى بامانجواتو إلى الشمال من ترانسفال » .

فأجبتُه : « نعم ، كنتُ هناك » .

وقد كنتُ مُندهشاً بعض الشيء لمعرفته تحركاتي جيداً .. فأضاف السير هنري قائلاً: «كنتَ تُتاجر هناك، أليس كذلك؟».

وأجبته مرةً أخرى : « نعم ، كنت . لقد أخذتُ عربةً مُحمّلةً بالبضائع ، ونصبتُ مُخيّماً خارجَ المكان وتوقّفتُ هناك حتى بعتُ جميعَ البضائع » .

كان السير هنري يجلس قُبالتي وقــد أسندَ ذراعيه على الطاولة .. ونظر إلى أعلى مُثبّتــاً عينيه الرماديتين الواسعتين على وجهي .. وقد رأيتُ فيهما قلقاً غريباً .. وقال : « ألم يحدث أنك قابلتَ هناك رجلاً يُدعى نِفيل ؟ » .

ــ آه ، أجل ، إنه أقام بقربي لبضعة أسابيع قليلة ليستريحَ قبـــل استئناف السير . وقـد تلقيتُ رسالةً منذ شهور قليلة يسألني فيها مُرسلها إنْ كنتُ علمتُ بما قـد حدث له . وأجبتُـه على الرسالة بما أعرفُ في ذلك الوقت » .

ــ « أجل » ، قـال السير هنري ، « إنّ رسالتـك أرسلت إليّ ، وفيها تقول بأنّ السيد المدعو نفيل قد غادر بامانجواتو في مطلع شهر أيار في عربـةٍ برفقة سائق ومواطن صياد يُدعى جيم باتجاه إنياتي ، آخر معقل للتجارة . وكان ينوي في هذا المكان بيعَ عربته ومُتابعة الرحلة على الأقدام .. وقلتَ أيضاً بأنه فعلاً قد باع عربته ، وأنك رأيتَ العربة بعد ستة أشهر من ذلـــك التاريخ بحوزة تاجر برتغالي، وقد أخبرك هذا التاجر بأنه اشترى

هذه العربة في إنياتي من رجلٍ أبيض قد نسيَ اسمه ، وهو يعتقدُ بأنّ هذا الرجل الأبيض ، هو ومواطنه الخادم ، قد انطلقا في رحلة صيد » .

ــ نعم ، حدث ذلك .

ثم رانتْ فترةُ صمت ..

ــ « ياسيد كواترمن »، قال السير هنري فجأةً ، « بافتراض أنك لا تعرف ، أوَ تستطيع أن تُخمّن شيئاً أكثر عن سبب رحلة السيد نفيــــل لجهة الشمال ، أو إلى أية جهة كانت الرحلة مُدبّرة ؟ » .

ــ « إنني قد سمعتُ شيئاً » ، أجبتُ ، ثم توقفتُ عــــن الكلام..فالموضوع كان من المواضيع التي لاأرغب البحثَ فيها..

ونظر كلٌّ من السيرهنري والكابتن جود إلى بعضهما البعض وأومأ الكابتن جود برأسه .. ثم استطرد السير هنري يقــــول : « يا سيد كواترمن ، سأروي لـك قصة ، طالباً مشورتك ، وربما

مساعدتك . إنّ السيد الذي أرسل لي رسالتك أخبرني أنـــه يمكنني الوثوق بمحتواها ثقةً مطلقة،وأنك معروفٌ ومحترمٌ جداً من قِبل الجميع في ناتال » .

وانحنيتُ أمامه ، وتابع السير هنري الحديثَ قائلاً : « إنّ السيد نفيل كان أخي » .

ــ « يا إلهي » ، قلت ، وقد عرفتُ الآن بمن جعلني السير هنري أفكّر عندما رأيته للمرة الاولى .

وتابع السير هنري يقول: « إنه كان أخي الأصغر والوحيد وحتى منذ خمسة أعوام لم أكن أذكر بأننا قد افترقنا عن بعضنا لأكثرَ من شهرٍ واحد. ولكن منذ حوالي خمسة أعوام تشاجرنا وتصرّفتُ بشكلٍ قاسٍ وغير عادل مع أخي في لحظة غضبي » .

وهنا أومأ الكابتن جود بهزةٍ من رأسه .

ــ وحدثَ أنه في اللحظة التي تشاجرنا فيها ، تُوفيَ والدُنا، وقد آلتْ إليّ كل أمواله على اعتبار أنني الابن الأكبر . .

وهكذا تُركَ أخي دون أن يأخذ بنساً واحداً. وكان من واجبي طبعاً أن أمدّه بالمال، وفي هذا تحقيقٌ لرغبة والدي في أن أفعلَ ذلك. ولكنه، وفي ذلك الوقت، وبسبب الشجار الذي حصل بيننا، لم أقدّم له شيئاً.. وأقولها بخجلٍ إنني كنتُ أنتظر منه السؤال والاستجداء، وهو ما لم يفعله.. إنني آسفٌ لإزعاجك بكل هذا، يا سيد كواترمن، ولكنني ما قصدتُ إلا إيضاحَ الأمور.. أليس كذلك يا جود؟

ــ «حقاً، تماماً»، قال الكابتن، «إنّ السيد كواترمن سوف يحتفظُ بهذا السرّ لنفسه».

ــ «طبعاً، بالتأكيد»، قلتُ له.

وتابع السير هنري يقول: «حسناً.. كان أخي يمتلكُ بعضَ المئات من الجنيهات. ودون أن يقولَ لي كلمة، أخذ هذا المال، وانطلق إلى جنوب أفريقيا، مُستخدماً اسمَ نفيل، وفي نفسه أملٌ جامح في أن يُصيبَ الثروةَ هناك. هذا ما علمتُه فيما بعد.. بعدَ مضيّ ثلاث سنوات على سفره، ومنذ ذلك الحين لم

أعدْ أسمعُ شيئاً عن أخباره ، رغم أنني كتبتُ له مراراً . ومما لا شكّ فيه أنّ هذه الرسائل لم تصله أبداً .. وكان كلما مرّ الوقت على ذلك ، كنتُ أزداد خوفاً وقلقاً عليه .. وبدأتُ بالاستفسار عنه ، وكانت رسالتُك إحدى هذه النتائج.. وأخيراً قرّرتُ أن آتيَ وأبحثَ عنه بنفسي ، وقد تلطّف الكابتن جود بالمجيء معي » .

ــ « أجل » ، قال الكابتن ، « لم يكن لديّ شيء آخر أفعله . والآن ، لعلّك يا سيدي ، ستسردُ علينا ما تعرفه أو ما قد سمعتَه عن هذا السيد المدعو نفيل » .

حديثي عن كنوز الملك سليمان

وفيما أنا صامتٌ أملأ غليـوني .. وقبـلَ الإجابة عن سؤال الكابتن جود ، قال لي السيد هنري : « ما الذي عرفتَه عن رحلة أخي في بامانجواتو ؟ » .

ــ «سمعتُ ما يلي » ، أجبتُ ، « ولم أتحدّث أو أنطق بما سمعتُه أبداً حتى اليوم .. لقد علمتُ أنه قد طفق في البحث عـن كنوز الملك سليمان » .

ــ « كنوزُ الملك سليمان ! » ، صرخ الاثنانِ على الفور ، « أين هي ؟ » .

ــ « لا أعلم » ، قلت ، « أعـلم أين ذُكر لي بأنها تـكون . وقد رأيتُ مرةً قممَ الجبال التي تُتاخمها، وكان هناك مئة وثلاثون ميلاً من الصحراء تفصلني عنها، ولا أعلمُ إذا ما كان أيُّ شخصٍ

أبيضَ قد اجتازها ، باستثناء شخصٍ واحد . ولعلّ أفضل ما أفعله هو أن أخبركم عن قصة كنوز الملك سليمان كما أعرفها . ولكن عليكما أن تَعِداني بحفظ سرّ كل ما أرويه لكما . فهلّا تُوافقان على هذا ؟ إنّ لديّ أسبابي الخاصة لهذا الطلب » .

وهزّ السير هنري رأسه علامةَ الموافقة ، وأجاب الكابتن جود قائلاً : « بالتأكيد ، بالتأكيد » .

ـــ « هنا وهناك » ، بدأتُ الحديث ، « تَريان رجلاً يتحمّلُ المتاعبَ من أجل أن يجمعَ القصصَ القديمة لأبناء الوطن . إنه الرجل الذي أخبرني عن كنوز الملك سليمان . وكان اسمه إفَنْزْ . وقد قال لي إفنز يومذاك : هل سبقَ لك أن سمعتَ بجبال سليمان ؟ حسناً ، إنها الجبال التي يوجد فيها كنوز الملك سليمان . إنّ ساحرةً عجوزاً من قرية ما نِكا قد أخبرتني بهذا . وقالت لي أيضاً بأنّ الناس الذين يعيشون عبرَ هذه الجبال كانوا فرعاً لشعب الزولو ، وهم يتحدّثون لغةً شبيهةً إلى حدٍّ ما باللغة الزولية ، ولكنهم كانوا رجالاً أضخم وأجمل من شعب الزولو .

وقالت بأنـه كان يعيش بينهم سحرة لديهم سرّ كنز عجيب مـن الأحجار البرّاقة .. وهذه هي قصة إفنز .. حسناً ، لقد سخرتُ يومها من القصة ولم أُعدْ أفكّر بهذا الموضوع . ولكن ، وبعد مرور عشرين عاماً ، سمعتُ المزيدَ عن جبال سليمان والبلد الذي يقع خلفها . وقد صدفَ أنْ كنتُ في إحدى المرات في مكانٍ يُدعى قرية سِتَندا عندما وصل إلى هناك سيدٌ برتغاليٌّ بصحبة رفيـق ملوّن ، نصف وطني ونصف أبيض .. كان هـذا الرجل يبـدو من أصلٍ عريق ، مديد القـامة ونحيف ، وله عينـــان سوداوتان واسعتان. وقد أخبرني بأنّ اسمه كان جوزي سِلفِستْر. وعندما همّ بالرحيل في اليـــوم التالي قال لي : « وداعاً »، وهو يرفـعُ قبّعته عن رأسه على طريقـة النبلاء القُدامى في البرتغال ، « وداعاً يا سيدي » ، قال ، « إذا شاء لنا الحظ أن نلتقيَ ثانية ، سأكون أغنى رجلٍ في العالم ، وسوف أذكرك » .

« راقبته وهو يتجه نحو الصحراء الكبيرة إلى الغرب ، وكنتُ أسائلُ نفسي مُتحيّراً عما إذا كان هذا الرجل به مسٌّ من جنون ، وما الذي كان يـدور في مُخيّلته عن الشيء الذي سيجده

أو يعثر عليه هناك .

« وبعد أسبوع ، وفي ذات مساء ، وفيما كنتُ جالساً على الأرض أمام خيمتي الصغيرة أنظر إلى الشمس الحادّة الحمراء وهي تهبط غائصة فوق الصحراء، رأيتُ فجأةً شخصاً يلوحُ من بعيد على منحدر الأرض المرتفعة قبالتي ، على بُعد حوالي ثلاثمائة ياردة . ويبدو أنّ هذا الشخص كان أوروبياً لأنه كان يرتدي معطفاً . وكان يزحف على يديه وركبتيه ، ثم انتصب على قدميه وجرى على ساقيه إلى نحو بضعة ياردات إلى الأمام ليسقط بعدها ويزحف ثانية .. وأرسلتُ أحد الصيادين الوطنيين لمساعدته حيث وصل بعد وقتٍ ما . ومَنْ تعتقدان أنه كان ؟».

— « جوزي سلفستر ، بالطبع » ، قال الكابتن جود.

— أجل ، جوزي سلفستر ، أو بالأحرى عظامه وجلد قليل . كان وجهه أصفر من المرض ، وعيناه السوداوتان الواسعتان تكاد تخرجُ من محجرهما في رأسه . لم يكن هناك سوى جلد أصفر وعظام تُمسك به . وكان يئنّ قائلاً : « ماء !

بالله عليكم ، ماء ! » ، ورأيتُ بأنّ شفتيه كانتا مُشرّختين ولسانه أسود .. وقدّمتُ له ماء مع قليلٍ من الحليب فيه ، كوبين كبيرين . وشربهما بشراهة دفعةً واحدة . لم أدعه يحصلُ على المزيد لأني خشيتُ عليه من الضرر . وسقط على الأرض ، وأخذ يتحدّثُ بطريقةٍ وحشية عن جبال سليمان ، والجواهر ، والصحراء .. حملتُه إلى داخل الخيمة ، وقدّمتُ له الإسعافات اللازمة ، وهي إسعافات كانت قليلة وغير كافية .. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة أخذ يهدأ ، فتمدّدتُ للراحة قليلاً ، واستسلمتُ للنوم . وعندما أشرقتِ الشمس ، استيقظتْ ، فرأيتُ من خلال نصف الضوء الذي خصّتنا به أشعة الشمس ، سلفستر ، وهو في هيئةٍ غريبة مُخيفة ، جالساً يرنو بناظريه نحو الصحراء . وكانت أشعة الشمس الأولى قد انبعثتْ على السهل الفسيح الممتد أمامنا حتى وصلتْ إلى القمة البعيدة، وهي إحدى أطول قمم جبال سليمان ، وتبعد أكثر من مئة ميل .. وهنا صرخ الرجل المحتضر وهو يُشير بذراعه الطويلة الرفيعة : « إنها هناك! أبداً .. أبداً لن يتمكن أحدٌ من الوصول إليها ! » .. فجأةً

صمت . « يا صديقي » ، قال ُملتفتاً نحوي : « هـل أنتَ هناك ؟ إنّ عينيّ يغشاهما الظلام » .

ــ « أجل » ، قلت ، « أجل ، تمدّد واسترح » .

ــ « سأستريحُ عما قريب » ، أجاب ، « وسأستريح إلى الأبد . إسمع ، إنني أحتضر . لقـــد كنتَ إنساناً طيّباً معي . سأُعطيك الرسالة . قد تستطيع الوصولَ إلى هناك إذا قُدّر لك الحياة في اجتيازالصحراء التي قتلَتني وقتلتْ خادمي المسكين » .

« أخذ يتحسّس شيئاً ما داخلَ قميصـــه ، وأخرج محفظةً صغيرة مصنوعةً من جلد الغزال .. وكانت هـذه المحفظة مربوطة بخيطٍ جلدي قصير . وناولني أياها قائـلاً : « فُكّها » . وفعلتُ ذلك ، وأخرجتُ منها قطعة قماشٍ صفراء ُممزّقـة كان مـكتوبٌ عليها شيء ما بحروفٍ حمراء داكـنة . وفي داخل هذا القماش ورقة . ثم استطرد يقول وهو في حالة إعياء وضعف : « إنّ هذه الورقة تُفسّر كل ما هو مدوّنٌ على القماش . ولقد طال بيَ الأمر لعدة سنوات لفكّ رموزها . إسمع : إنـــني من سلالة جوزي

دا سلفستر الذي كان يعيش منذ ثلاثمائة سنة . إنه كان أحدُ البرتغاليين الأوَل الذين نزلوا على هذه الشواطىء. إنه كتبَ عن هذه الجبال التي لم تطأها قدمٌ رجل أبيض ، عندما كان في النزع الأخير من حياته . إنّ خادمه العبد الذي كان ينتظره على هـذا الجانب من الجبال ، قد عثرَ عليه ميتـاً ، وأحضر هذه الكتابـة إلى بيته في ديلاجو . وقد بقيت هذه الرسالة عند العائلة منـذ ذلك الحين ، ولم يهتمّ أحدٌ بقراءتها إلى حين فعلتُ ذلك. وها أنا قد فقدتُ حياتي ثمناً لهذا . ولكن شخصاً ما قـد ينجح ويصبح أغنى رجل في العالم ، نعم ، أغنى رجل في العالم . ما أطلبه منك فقط هو أن لا تُعطي هذه الكتابة لأحد ، بـل اذهب أنت بنفسك ! » .

« ثم بـدأ فكرُهُ يسرحُ مرةً أخرى ، وفي غضون ساعةٍ واحدة كان كل شيء قد انتهى . لقد مات ، أراحه الله ، إنه مات بكل هدوء . وجعلتُ له قبراً عميقاً ، ووضعتُ حجرين كبيرين على صدره . وهكذا أمِنتُ عليه من أن تصل إليه الكلاب . وغادرتُ المكان » .

ـــ « نعم ، وماذا عن الورقـة ؟ » ، قال السير هنري باهتمام زائد .

ـــ حسناً ، يا سادة ، إذا رغبتما في ذلك ، فإنني سأُخبركما . إنني لم أرِها لمخلوق ما عدا تاجرٍ برتغالي كان يُكثر من شرب الخمر بشكلٍ يضرّ بصحته. ولقد أخبرني عن فحوى هذه الكتابة، وأنا متأكد أنه قد نسيَ كل شيء عن هذا الموضوع في صباح اليوم التالي .. إنّ الورقـة المكتوبة باللغة البرتغالية موجودة في بيتي ، ولكنني أحتفظُ بالنص الانكليزي لها هنا في جيبي مع رسمٍ للخريطة .. ها هي ..

وبدأتُ أقرأ :

« أنا جوزي دا سلفستر . إنني أموتُ جوعاً في كهفٍ صغير على الجانب الشمالي من الجبل الذي أطلقتُ عليه اسم « نهود شيبا » . ويقع هذا الكهف إلى الجهة الجنوبية مـن القمة . أكتبُ هذا الخطاب في عام ١٥٩٠، وقلمي هو قطعةٌ من العظام، وورقتي هي قطعةٌ من القماش مزّقتها من قميصي ، وبدمائي أكتب

عليها . إذا عثر خادمي على هذه الرسالة ، فعليه أن يُحضرها إلى ديلاجو ، صديقي ، (لا يمكن قراءةَ الاسم) . وعلى صديقي أن يُخبر الملك بهذا الأمر حتى يُرسل جيشاً . فـإذا ما أُتيحَ لهذا الجيش أن يظلّ حيّاً َعبر الصحراء وأن َيهزمَ القومَ هناك ، الكوكيواناس ، فإنه ، أي الملك ، سيُصبح أغنى ملــك على الأرض . يجب أن يُرافقَ الجيش رجالٌ أتقيـاء ، لأنّ شعب الكوكيواناس ُيلمّون بفنون الشر . لقد رأيتُ بأُمّ عيني ملايين من الجواهر المخزونة في غرفة كنز الملك سليمان خلف الموت الأبيض . ولكنّ جاجول ، الساحرة التي اكتشفتني ، قــد خدعتني بحيث لم أحضر معي شيئاً ، بـل بالكاد نفدتُ بحياتي . فإلى الذي يأتي إلى هنا أن يتبعَ الخريطة ويتسلّق ثلوجَ قمة شيبا حتى يصل أعلى القمة . وعلى الجانب الشمالي من هـذه القمة يوجد الطريق الكبير الذي شقّه سليمان . ومن هنـاك تستغرقُ الرحلة ثلاثة أيام كي يَصِـلَ إلى قصر الملك . عليه أن يقتـلَ جاجول . ويصلّي من أجل راحة نفسي . وداعاً .. جوزي داسلفستر » .

وعندما انتهيتُ من القراءة أطلعتُهما على رسم الخريطة التي

رسمها الرجلُ المُحتضرُ بدمائه .. وتَبِعَ ذلك صمتٌ وهدوء .

ـــ « حسناً » ، قال الكابتن جود ، « لقد طُفتُ حول العالم مرّتين ، ودخلتُ إلى معظم المرافىء ، ولكنني لم أسمع بمثلِ هذه القصة إلا في الكتب ، لا ، بل ولا حتى في كتب القصص قرأتُ مثلَها » .

ـــ « إنها روايةٌ غريبة ، يا سيد كواترمن » ، قال السير هنري ، « أهيَ حقيقة ؟ » .

ـــ « إن كنتَ تعتقدُ أنها غير حقيقة واقعة، يا سير هنري» أجبتُ ، وأنا مستاء نوعاً ما، « فلِمَ لا ننتهي من هذا الموضوع».

ووضعتُ الورقة في جيبي ونهضتُ للذهاب .

ولكنّ السير هنري وضع يدَه على كتفي قائلاً : « إجلس يا سيّد كواترمن ، أرجو المعذرة ، فإنني أعلم تماماً بأنك لم تشأ خداعَنا ، ولكنّ القصة تبدو غريبة ، حتى أنني لم أستطع تصديقَها » .

ــ « إنك حتماً سترى الخريطة وكتابَ جوزي داسلفستر عندما نصلُ دوربان »، أجبتُ، « والحقيقة أنّ الإنسانَ يرتاب في صحة ما أروي. ولكنني لم أخبرك عن أخيك. لقد عرفتُ الرجل جيم الذي كان معه. إنه مواطن من بيشونلاند، صيادٌ ماهر، وإنسانٌ خارقُ الذكاء.. وفي ذلك الصباح الذي كان فيه السيد نفيل يتهيأ للانطلاق، رأيتُ جيم واقفاً قُربَ عربتي..

ــ « يا جيم »، قلتُ له، « إلى أين تذهبون في هذه الرحلة؟ ألِى صيد الفيلة ؟ ».

ــ « كلا يا سيدي »، أجاب جيم، « إننا ذاهبون للحصول على ما هو أثمن من الفيلة ».

ــ « وماذا عسى أن يكون هذا الشيء ؟ »، قلتُ له باهتمام، « أهوَ الذهب ؟ ».

ــ « لا يا سيدي، شيء أغلى وأثمن من الذهب » وضحك.

وتوقفتُ عن طرح الأسئلة ، لأنني لم أشأ أن أبدو كثيرَ الاستفسار ، أو أنني لم أعدْ أعرفُ بماذا أفكّر .

وبعدَ وقتٍ قصير قال جيم : « يا سيدي » .. ولكنني لم أنتبه ، فعاد يقول مرةً أخرى : « يا سيدي » ..

ـــ أنتَ يا غلام ، ما الأمر ؟

ـــ يا سيدي ، إننا نسعى وراء الألماس ..

ـــ « الألماس » ، قلت ، « إذن أنتَ تسير في الاتجاه الخاطىء . يجب أن تذهبَ إلى حقول الأحجار الماسية في كمبرلي » .

ـــ سيدي ، ألم تسمع في حياتك عن جبال سليمان ؟

ـــ قد سمعتُ قصة سخيفة ، يا جيم .

ـــ إنها ليست قصة . قد عرفتُ امرأةً جاءت من هناك ، ووصلتْ إلى ناتال مع طفلها . وقد أخبرتني عن ذلك . إنها

ميتة الآن .

ــ إنّ جثّة سيّدَك ستكون طعاماً للطيور ، يا جيم ، إذا ما حاول الوصول إلى بلد سليمان ، وهكذا سيكون مصيرُك أنت ، هذا إذا استطاعت هذه الطيور أن تمحضَ اللحم عن عظامكما المهترئة .

وضحك من كلامي هذا ، وقال : « ربما يا سيدي . فمصير الإنسان إلى الزوال . إنني أفضّل المحاولة في البحث عن بلدٍ جديد بنفسي » .

ــ « يا غلامي » ، قلت ، « إنك ساعٍ إلى هذا الإنسان الشاحب القديم ، الموت . كي يقبضَ على زلعومك الأصفر ، وعندها ستُصغي إلى الأنشودة التي ستُنشدها » .

وبعد نصف ساعة من ذلك ، رأيتُ عربة نفيل تنطلق . عاد جيم راكضاً إليّ ليقول : « وداعاً يا سيدي ، لم أشأ أن أبدأ الرحلة دون وداعك ، فقد لا نلتقي ثانية » .

قلتُ له: « هل حقاً سيدك ذاهب إلى جبال سليمان يا جيم؟ »

ــ « أجل » ، أجاب ، « إنه سيُحاول العثورَ على أحجار الماس » .

ــ « يا لله ! » ، قلت ، « هل تأخذ رسالةً مني لسيدك ، وتَعِدُني بأنك لن تسلمه إياها إلا عندما تصلان إلى إنياتي ، التي تبعد مئة ميل من هنا ؟ » .

ــ نعم يا سيدي ، أعد .

وهكذا أخذتُ قطعةَ ورق كتبتُ عليها : « تسلّق ثلوجَ الصدرَ الشمالي لجبـــال شيبا حتى تصلَ إلى القمة ، فعلى الجانب الشمالي من ذلك ، يوجد طريق سليمان » .

ــ « وهذا » ، قلتُ ، ملتفتـاً نحو السير هنري ، « هو كل ما أعرفه عن شقيقك ، ولكنني كثير الخوف والوجل » .

ــ « يا سيد كواترمن » ، قال السير هنري ، « إنني جادٌ

في البحث عن أخي حتى أعثرَ عليه ، أو حتى أعرف أنه ميّت . أو َتأتي معي ؟ وإذا وجدنا الألماس بالصدفة فهي من حقّك وحقّ جود مُناصفة . أنا لا أريده . يُمكنك أن تُملي َ شروطك الخاصة عليّ ، يا سيد كواترمن . وأنا ، طبعاً ، سأدفع الثمن » .

نهضتُ ، ثم اتجهتُ إلى جانب السفينة، وأشعلتُ غليوني. كنتُ أريد لحظات قليلة لأفكّر بها في الأمر وأقرّر..وأخذتُ أراقبُ هيولَ التبغ المُحترق وهو يسقط كنجمٍ أحمر في البحر . ثم عدتُ إلى الغرفة .. وخاطبتُ السيدَين قائلاً : « سأذهب . وأنا أخبركما بكلّ بساطةٍ ووضوح بأنني لا أعتقدُ أننا سنخرجُ أحياء من هذه الرحلة، ذلــــك إذا حاولنا عبورَ جبال سليمان . فماذا كان مصيرُ جوزي داسلفستر منذ ثلاثمائة سنة ؟ وماذا كان مصيرُ سلالته منذ عشرين عاماً ؟ وماذا كان مصير شقيقك ؟ عن هذا سأخبركما ببساطة أيها السادة . مثلما كان مصيرهم ، سيكون مصيرنا » .

لم يبدُ أيّ تغيّر على وجه السير هنري ، بل قال : « يجب

أن نأخذَ فُرصتنا . فإذا ما صُرعنا ، فإني أرجو أن يسبقَ ذلك معركة نخوضها بالسلاح ، أليس كذلك يا جود ؟ » .

ــ « أجل ، أجل » ، أجاب الكابتن ، « لقد اعتاد كلٌّ منا نحن الثلاثة على مواجهة الخطر ، وعلى حمل أرواحنا على راحتنا بطرقٍ متعدّدة ، وليس يُفيدنا أن نتقهقر الآن » .

أومبوبا يعمل في خدمتنا

عندما وصلنا إلى دوربان ، أقام السير هنري والكابتن جود في منزلي الذي كان يحتـوي على ثلاث غرف ومطبخ ، وكان مصنوعاً من الآجرّ الأخضر بسقفٍ حديدي ، وفيه حديقة جميلة .. ثم اشتريتُ عربةً ومجموعةً جيّدة من عشرين رأس بقر من البقر الزولي . وكان السير هنري قد أحضر معه من انكلترا عدداً من البنادق والمسدسات، وكان لديّ مخزن يصلح للاحتفاظ بها .. وقد أخذنا منها عشر بنادق وثلاثة مسدسات .. وقرّرنا أن نصطحبَ معنا خمسةً من الخدم : سائق ، مرشد ، وثلاثة آخرين . ووجدتُ السائق والمرشد بدون أية صعوبة ، وهما من قبيلة الزولو ، ويُدعيان جوزا وتوم . أما الحصول على الخدم الثلاثة الآخرين فالأمر كان عسيراً .. فقد كان ضرورياً جداً أن يكون هؤلاء الثلاثة موضعَ ثقةٍ كاملة ومن الرجال الذين

يتّصفون بالشجاعة ، لأنه في مثل هذا النوع من العمل ، فإن حياتنا قد تكون مُتوقفة عليهم .. وأخيراً عثرتُ على اثنين منهم : فِنثفورجل ، صياد ممتاز ، وكيفا ، شابٌ زوليٌ كان يُلمُّ ببعض الانكليزية .. وفشلتُ في العثور على الرجل الخامس . وهكذا قرّرنا الرحيلَ بدون هذا الرجل .

وكان الوقتُ مساء قبل أن نبدأ رحلتنا . وكنا قد انتهينا من تناول عشائنا ، وما نزال جالسين على الطاولة عندما جاء كيفا وأخبرنا بأنّ رجلاً زولياً يُدعى أومبوبا يرغب في مقابلتي . وطلبتُ من كيفا إحضاره . ودخلَ رجلٌ طويلٌ بهيُّ الطلعة يُناهز الثلاثين من عمره ، يختلف لونه عن الزولو . رفع عصاه بطريقةٍ تُعبّر عن تحيّة ، وجلس على الأرض في الزاوية ولَزِمَ الصمت . ولاحظتُ أنّ الرجل كان من قبيلة كِشلا ، وأنه كان يضع على رأسه طوقاً أسود مصنوعاً من نوعٍ من الشمع المصقول بالشحم .. وكان هذا الطوق يُلبسُ عادةً من قِبل الزولو عندما يصلون إلى سنٍّ أو رتبةٍ معينة . وقد بدا لي هذا الوجه مألوفاً .

ــ « حسناً » ، قلتُ أخيراً ، « ما اسمك ؟ » .

ــ « أومبوبا » ، أجاب الرجل بصوتٍ مُنخفض هادىء .

ــ لقد رأيتُ وجهك من قبل .

ــ أجل ، إنّ الزعيمَ رأى وجهي في مكانٍ يُدعى اليد الصغيرة ، قبل يومٍ من المعركة .

ثم تذكّرت . لقد كنتُ أحدَ مُرشدي اللورد شِلْمز فورد في حرب الزولو غير الموفّقة ، وشاركتُ في بعض معاركها ، وكنتُ محظوظاً لكوني لم أُقتل فيها . وقبل يوم من المعركة كنتُ أتحدّث إلى هذا الرجل الذي كان قائداً لمجموعةٍ من مواطني البلاد الطيّبين . وأخبرني يومذاك أنه يشكّ بالأمان في المعسكر ، فأجبتُه أن يلزمَ جانبَ الصمت وأن يتركَ مثلَ هذه الأمور إلى رؤوس أكثر حكمة . ولكني فكّرتُ فيما بعد بكلماته وأقواله .

ــ « أذكر ذلك » ، قلتُ له ، « ولكن ماذا تريد الآن؟» .

ــ لقد علمتُ بسفركم إلى الشمال بصحبة الزعماء البيض .

أحقاً ذلك ؟

ــ ذلك صحيح .

ــ لقد علمتُ بأنكم تعتزمون السفر عند ضوء القمر في رحلةٍ إلى ما وراء بلاد مانيكا . فاذا كنتم حقاً تنوون السفر إلى مكانٍ بعيد ، فإنني سأسافر معكم . لا أُريد مالاً ، ولكنني رجلٌ شجاع واستحقّ مكاني واللحم الذي آكله .. هذا ما جئتُ من أجله .. وها قد قلتُه لك .

كان هذا الرجل مُختلفاً عن رجال الزولو الآخرين ، ولم أثق تماماً بعرضه القدومَ معنا دون أجر . وأخبرت السير هنري والكابتن جود بما قال ، وطلبتُ منهما الرأي .. وأبلغني السير هنري في أن أسأله الوقوفَ .. أومبوبا فعل ذلك .. ولكنه ما كاد يقف حتى نزع عن نفسه المعطفَ الطويل الذي كان يرتديه ليبدو عارياً إلا من قطعة قماشٍ التفّتْ حول وسطه وحبلاً عَلّق عليه أسنان أسد التفّ حول عُنقه . وفي الحقيقة فقد كان رجلاً ذا مظهرٍ لائقٍ لم أرَ له مثيلاً بين مواطنيه ، يبلغ طولُه ستة

أقدام وثلاث بوصات ، كما كان عريض المنكبَين أيضاً ، وحسن المظهر تماماً . وفي نور هذا الضوء لم يكن جلده يبدو أسود ، باستثناء بعض الخطوط السوداء الموزّعة هنا وهناك بفعل جروح وطعنات من رماح . تقدّم نحوه السير هنري وأخذ يتملّى ويتفحّص وجهَه الجميل المفعم بالكبرياء .

ـ « إنني أحبُّ نظراتِك ، يا سيد أومبوبا، وسأصطحبُك معي كخادمٍ لي » ، قال السير هنري بلغةٍ انكليزية .

ويبدو أنّ أومبوبا فَهِمَ قصدَه، لأنه أجاب بلغته الزولية : « ذلك حسن » . ثم أضاف وهو ينظر إلى القامة المديدة للرجل الأبيض : « نحن رجال ، أنتَ وأنا » .

الى ستندزكرال

ليس في نيّتي الآن أن أصفَ بالكامل كل ما جرى معنا من أحداثٍ في رحلتنا الطويلة إلى ستندزكرال، وهي رحلةٌ قطعنا خلالها أكثر من ثلاثة آلاف ميل من دوربان. وكان علينا أن نقطعَ الثلاثمائة ميل الأخيرة مشياً على الأقدام بسبب وجود ذُباب التسي الذي تجلبُ عضّاتُه الموت لكل الحيوانات باستثناء الحمير والإنسان.

غادرنا دوربان في نهاية كانون الثاني، وكنا في الأسبوع الثاني من أيار عندما خيّمنا قُربَ ستندزكرال.

في إنياتي، بَقيَ لدينا فقط اثنا عشر رأساً من الماشية من مجموع العشرين التي اشتريناها في دوربان. وقد تركنا العربة والبهائم في حراسة جوزا وتوم، سائقنا ومرشدنا، وكلاهما من

الغلمان الذين يُوثق بهم .. ثم ، مع أومبوبا وكيفا وفنتفوجل ونصف دزينة من الرجال الذين استأجرناهم على الفور لحمل أغراضنا، انطلقنا سيراً على الأقدام في رحلتنا الخطيرة من هناك إلى ستندزكرال .

وأذكر أننا جميعاً لزمنا الصمت في هذه المناسبة ، وأعتقد أنّ كلاً منا كانَ يسائل نفسه إذا كنا سنرى العربة مرةً ثانية ، لأنني أنا نفسي لم أكنْ أتوقّع مُشاهدتَها ثانية .

وهكذا تقدّمنا مُنطلقين في الرحلة ونحن صامتون لا نتكلم .. إلا أنّ أومبوبا الذي كان يسيرُ في المقدمة انطلق في أغنيةٍ زولية ، وكانت هذه الأغنية عن بعض رجالٍ شجعان تَعبوا من الحياة وملّوا رتابةَ الأشياء والهدوء ، فانطلقوا يبحثون عن أشياء جديدة في صحراء واسعة ، ودون ذلك الموت، وكيف أنهم عندما توغّلوا بعيداً في هذه الصحراء ، وجدوا أنها ليست بصحراء تماماً ، بل هي مكان جميل يغصُّ بالزوجات الشابات وقطعان المواشي الجميلة ، من الوحوش

التي تُصاد والأعداء الذين يجب قتلهم .. وضحكنا عندئذ لهذه الأغنية . إنّ أومبوبا كان رفيقاً سارّاً ومُفرحاً .

وفي طريقنا وُفّقنا بالصيد وتمكّنا من قتل تسعة فيلة . وقد لَحِقَ أحدُ الفيلة جود وكاد يقضي عليـــه لولا عَملٌ شجاع من الزولي الصغير، كيفا . لقد وقع جود أمامَ الفيل ، واعتقدنا للوهلة الأولى أنّ نهايته محقّقـة ، غير أنّ كيفا تحوّل نحو الفيـل وألقى برمحه في وجهه ، فأصـاب خرطومَه . وبصرخةٍ من الألم قبض هذا الحيوان على الزولي المسكين واضعاً قدَمه على جسده ممزّقاً إياه إلى شطرين ! فاندفعنـا نُطلق ونُطلق النـار عليه حتى سقط .. ونهض جود من على الأرض ، ونفسه يغمرُها الحزن العميق نحو هذا الرجـل الشجاع الذي ضحّى بحياته لإنقاذه .. ووقف أومبوبا يُحملقُ في الفيل الضخم الجثّة الميت ، وفي بقـايا كيفا المسكين .. وأخيراً ، قـال : « آه ، لقد مات ، ولكنه مات ميتةَ الرجال » .

وتابعنا السير مرةً أخرى،ووصلنا أخيراً إلى ستندزكرال.

إنني أذكر جيّداً كيف وصلنا إلى هذا المكان . إلى اليمين منه كان هناك قريةٌ مُبعثرة فيها بيوتٌ حجرية قليلة العدد من أجل المواشي ، وبعض حقول القمح القريبة من مساقط المياه . وإلى ما وراء ذلك كانت هناك أرضٌ عشبيةٌ شاسعة ، وإلى جهة اليسار كانت تقع الصحراء .. وتحت معسكرنا تماماً كان ينساب جدولٌ صغير ، وعلى بُعد منه كان مُنحدرٌ حجري ، وعند أسفل ذلك المنحدر ، ومنذ عشرين عاماً خلتْ ، رأيتُ سلفستر المسكين وهو يزحفُ إلى الوراء عائداً بعد مُحاولته في الوصول إلى كنوز الملك سليمان . وخلفَ ذلك المنحدر تبدأ الصحراء الجافّة من المياه .

كان الوقتُ مساء . وكان قرصُ الشمس العظيم يميلُ في الهبوط إلى الصحراء ، مُرسلاً إشعة رائعة من الضوء الملوّن بألوان عديدة فوق السهلِ المنبطح. تركتُ جود لِأتفقّدَ مايجري في مُخيّمنا الصغير من ترتيبات وإجراءات، وأخذتُ معي السير هنري .. وصعدنا إلى قمة المنحدر المقابل ، ونظرنا إلى الصحراء.

كانتِ السماءُ صافيةً جداً بحيثُ استطعتُ أنْ أرى من البعيد البعيد الشكل الزورقاوي الخافت لجبال سليمان .

ــ « هناك » ، قلت، « يوجد الجدار الذي يُحيط بكنوز سليمان ، لكنّ الله وحده يعلم إذا كنا سنستطيع تسلّقه أم لا » .

وهنا قال السير هنري : « لا بدّ أن يكون أخي هناك ، وإذا كان حقاً هناك ، فإني واصلٌ إليه لا محالة » .

ــ « آملُ ذلك » ، أجبت ، واستدرتُ للعودة إلى المخيم .

عندئذٍ رأيتُ أننا لم نكن وحدنا ، بل كان أومبوبا واقفاً وراءنا ينظر إلى الجبال البعيدة جداً .. وبادرنا بالسؤال قائلاً وهو يُشير برمحه العريض : « أهِيَ تلك الأرض التي تعتزمون السفر إليها ؟ » .

ــ « أجل ، يا أومبوبا » ، أجاب السير هنري ، « أريد السفر إلى هناك » .

فقال أومبوبا : « إنّ الصحراء شاسعة لا ماء فيها ، والجبال عالية ومغطاةٌ بالثلج . ولا يستطيع الإنسان القولَ أو التكهّن بما يقعُ خلفها في المكان الذي تغيب فيه الشمس . إنها رحلةٌ بعيدة » .

— « أجل » ، أجاب السير هنري ، « إنها بعيـــدة . إنني أذهب للبحث عن أخي. ولا توجد رحلةٌ على وجه هذه الأرض لا يستطيعُ الإنسان القيامَ بها إنْ هو صمّم على ذلك .. لا جبال لا يمكنه تسلّقها، لا صحراء لا يستطيعُ عبورَها إنْ كان الحبّ هو الذي يقودُه ويضع روحه على كفّه دون أن يحسبَ لها حساب مُبدياً استعداده للاحتفاظ بها أو فقدها ، وكما هي مشيئة الله » .

وأجاب أومبـوبا : « كلماتٌ في غاية العظمة ، يا أبي ، لعلّي أبحثُ عن أخٍ لي هناك فوق الجبال » .

نظرتُ إليه وقلت : « ماذا تقصد ؟ ماذا تعرف عـن هذه الجبال ؟ » .

ـــ القليـل ، القليـل جداً . فهناك أرضٌ غريبة ، أرض
فيها ساحراتٌ وأشياء جميلة ، أرضٌ لشعبٍ شجاع ، وفيهـــا
أشجارٌ وجداولُ وجبالٌ من الثلوجِ ، وطريقٌ واسعٌ نظيف .
لقد سمعتُ بهذا . و منْ يَعِشْ يرَ .

في الصحراء

وفي اليوم التـالي أعددنا العُدّة للبـدء في رحلة الصحراء وطبعاً كان مستحيلاً علينا أن نأخذ معنـا كل الأشياء لِنعبرَ بها الصحراء ، فأودعنـا بعضها أمانةً لدى أحد المواطنـين الذي كان يملك كوخاً صغيراً بالقرب منا ريثما نعود . وأخذنا معنـا خمس بنادق ، وثلاثـة مسدسات ، وخمس قارورات مـــاء ، وخمساً وعشرين رطلاً من اللحم المجفّف بالشمس، وسكاكين ، وبوصلة، وبعض الكبريت ، وبعض الأدوات الأخرى القليـلة .. وقـد حصلتُ على ثلاثة مواطنين من القرية ليصطحبونا مسافـةَ الخمس وعشرين ميلاً الأولى ، مُقابل وعدهم بإعطاء كلٍّ منهم مديـــةَ صيد جيدة . وذلك ليحمل كلٌّ منهم مطرةً كبيرة من الماء.وكان هدفي من وراء ذلك هو تعبئة قوارير مائنا مرةً ثانيـة بعد مسيرة الليلة الاولى .

وعندما عزمنا على الانطلاق في الرحلة في جوّ البرودة عند المساء، وقف السير هنري يخاطبنا بصوته الهادىء قائلاً: «أيها السادة. إننا سنقوم في رحلة هي من أغرب ما يستطيع أن يقوم بها إنسانٌ في هذا العالم. وقبل أن ننطلق، دعونا نصلّي إلى الله الذي يُحدّد مصائرَ البشر علّه يُسدّد خطانا حسب مشيئته».

وبعد أن نزعَ قبّعته من على رأسه، وغطّى وجهه بيده للحظةٍ ما، وبعد أن فعلتُ أنا وجود نفس الشيء، صاح السير هنري قائلاً: «تقدّموا!».

لم يكن لدينا ما نسترشد به سوى الجبال البعيدة وخريطة جوزي داسلفستر العجوز. فلو أخفقنا في العثور على «بئر المياه الرديئة» التي عيّنتها الخريطة في وسط الصحراء، فإننا سوف نموتُ من الظمأ. وكان يبدو لي أنّ آمالنا المعلّقة في العثور على هذه البئر في وسط هذا البحر الكبير من الرمال كانت ضئيلة جداً.. وحتى بافتراض أنّ سلفستر قد عيّن مكانَ البئر تماماً، فقد تكون هذه البئر قد جفّ ماؤها بفعل الشمس منذ سنوات،

أوِ امتلأت بالرمال .

وسرنا بهدوء وصمت كأطيافٍ في الليل وفي الرمال الثقيلة كان الهدوء مُخيّماً ، وشعرنا بالوحدة في الصحراء .

وأخيراً أصبحت السماء لجهة الشرق وردّية حمراء كوجنة فتاة . وهلّت خطوطٌ باهتة من ضوءٍ أصفر سرعان ما تحوّلت إلى قضبان ذهبية ، وزحف الفجر عبر الصحراء .

وبعد ساعة اقتربنا من صخرة كبيرة كانت مُعلّقة بين صخورٍ أخرى موجودة في السهل ، ووجدنا فيها مأوى يحمينا من حرارة الشمس . فأكلنا وشربنا ثم استلقينا لِنغطّ في نومٍ عميق. وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعدالظهر عندما استيقظنا. فوجدنا أنّ حملةَ الماء من المواطنين قد بدأوا يستعدّون للعودة . فهم قد رأوا ما يكفي من هذه الصحراء قبل ذلك ، وإنّ أيّ عددٍ من السكاكين أو الهدايا الأخرى لن تجعلهم يَخطون خطوة واحدة إلى الأمام .

وهكذا شربَ كلٌّ منا جُرعةً كبيرة من الماء ، وملأنا

زجاجات الماء التي معنا ، ووقفنا نُراقبهم وهم يغادرون ليقطعوا عشرين ميلاً سيراً على الأقدام عائدين إلى الوطن .

وانطلقنا نحن أيضاً في الرابعة والنصف . ولم نرَ شيئاً حيّاً في هذا السهل الكبير .. والمخلوقُ الوحيد الذي وجدناه ، كان مجموعةً من الذباب التي سعتْ إلينا ، ليس بشكلٍ إفرادي ، بل على هيئة جيوش زاحفة .

وعند مغيب الشمس ، توقّفنا وأخذنا ننتظر ظهورَ القمر ، ثم استأنفنا المسير خلال الليل حتى ظهرت الشمس . فأكلنا قليلاً ، ثم استلقينا على الرمال للنوم . لم يكن هناك واقٍ يحمينا من الشمس .

وفي السابعة صباحاً استيقظنا ونحن نشعر كأننا قطعةٌ من لحمٍ وُضعت على النار . ولا أدري كيف عشنا بقية هذا النهار .

وفي حوالي الثالثة بعد الظهر أجمعت آراؤنا على أننا لن نستطيع التحمّل أكثر ، وبدأنا بالتحرّك إلى الأمام مرةً أخرى .

عند غروب الشمس استرحنا وأخذنا قسطاً من النوم . وتابعنا السير عند طلوع القمر . كنا نُقاسي من الظمأ بشكل مرير . ولم تبق لدينا قوّة تجعلنا قادرين على الكلام .

وفي الساعة الثانية توقّفنا قرب تلةٍ صغيرة جُذبنا إليها بفعل الظمأ الشديد ، وشربنا آخر ما تبقّى معنا من نقاط الماء ، ثم استلقينا .

وفيما كنتُ على وشك أن أغطّ في النوم ، سمعتُ أومبوبا يُخاطبُ نفسه قائلاً : « إنْ لم نعثر على ماء ، فسنلقى حتفنا جميعاً قبل ظهور القمر غداً » .

الماء ! الماء !

واستيقظتُ بعد ساعتين . لم أستطع النوم أكثر من ذلك. كنتُ أحلمُ أنني أستحمّ في ساقيةٍ جارية ، واستيقظتُ لأجدَ نفسي في هذه الصحراء الجافّة ، ولأتذكّرَ بأنه إنْ لم نجد ماء في هذا اليوم ، فسوف نموت. استيقظ الآخرون . وبدأنا نتحدّث في الأمر . الأمور بدتْ خطيرة جداً .

— « إنْ لم نجد ماء ، فسوف نموت » ، قال السير هنري .

وقلتُ أنا : « إذا قَدِرنا أن نشقَّ بخريطة سلفستر ، فهناك يجب أن يكون بعض الماء قريباً منا » .

ولم يهتمّ أحدٌ بهذا القول . فقـــد كان من الواضح عدم وجود إيمان كبير يتعلّق بهذه الخريطة .

كان ضـوء النهار يزداد انبثاقـاً . ورأيتُ فنتفوجل ينهض ويبدأ بـ « المشورَة » . ثم رفـع أنفه عالياً ، وبدا أنـه يستنشق الهواء .

— « إنني أشمّ رائحة ماء » ، قال .

ثم أشرقتِ الشمس بمجد وبهاء . وهنـــاك ، وعلى بُعدٍ لا يزيد عن خمسين ميـلاً ، رأينا نهودَ شيبـا ، وعلى كل جانبٍ منها سلسلة جبال سليمان التي كانت تمتد لمئات الأميال .

— « إنك أحمق ! » ، قلتُ لفنتفوجل ، « لا يوجد ماء ».

— « إنني أشمّ رائحته ، يا سيدي » ، أجاب .

وأخذ السير هنري يُمسّد لحيته مُفكّراً ، وقـــال: « لعلّه موجود على قمة التلة » .

وبكلّ يـأسٍ صعدنا الجوانبَ الرملية من التـلة الصغيرة ، وبكلّ تأكيد ، وفي روْسمٍ عميق ، كان هناك ماء ! فشربنا حتى ارتوينا وملأنا زجاجات الماء ، وانطلقنا حالاً عندما ظهر القمر.

ومرةً أخرى نفدتْ منا الميــــاه عندما وصلنا إلى أسفل الجبل . ولكن ، ولحســن الحظ ، وجدنا بعض الفاكهة في قعر مُجوّف عند جانب الجبل . وعنـدما أصبحنا في مكانٍ أعلى في الجبل ، قاسينا بردَ الليالي الشديدة البرودة .. ولم يبقَ من قوانا إلا القليل ، وقد نفد الطعام . التاريخ الثالث والعشرين من أيار . وبدأنا نكافحُ في الصعود البطيء نحو المنحدر الثلجي ، ونستريحُ من وقتٍ لآخر .

وعند شروق الشمس وجــــدنا أنفسنا تحت النهد الشمالي لشيبا .. وهنا قال جود في صوتٍ خافتٍ ضعيف : « أرى بأننا قد نكون في مكانٍ ما قريب من المغارة التي كتب عنها الرجل العجوز » .

ـــ « أجـل » ، قلت ، « إذا كانت هنـاك مغارة ولم نجدها قبل حلول الظلام ، فنحن لا محالة ميّتون » .

وواصلنا سيرنا بصمت. ثم أمسك أومبوبا بذراعي وقال : « أنظر ! » .

ورأيتُ ما كان يبدو أنه حفرةٌ في الثلج .

ـــ « إنها المغارة » ، قال أومبوبا .

وأسرعنا إلى المكان ، ووجدنا بـــأنّ الثغرةَ كانت فتحةَ مغارة . وزحفنـا إلى داخل المغارة ، واستلقينا جنبـاً إلى جنب حتى نحسّ بالدفء .

لم نقدر أن ننام ، فقـد كان البردُ مُريعاً . وجلسـنا نُقضّي الساعات ، والصقيعُ ينهش بنا دون هوادة .

وليس قبل شروق الشمس بوقتٍ طويـل سمعتُ فنتفوجل يشهقُ شهقةً عميقة . ثم ران صمتٌ ما . كان ظهرُهُ مُتّكئاً على ظهري ، والبردُ يتغلغلُ فيـه أكثر فأكثر حتى أصبح كأنه قطعة ثلج .

وأخيراً ظهر ضـوء النهار ، وأطلّتِ الشمس على أجسادنا النصف مجمّدة ، وأيضـاً على فنتفوجل الذي كان جالساً بيننـا ، وقد فارق الحياة .. وابتعدنا عن الجثة تاركينها جالسةً هناك ،

وقد احتضنتْ ذراعاها ركبتها .

وفجأةً سمعنا صرخةَ خوف أطلقها شخصٌ ما ، وأدرتُ رأسي نحو مصدر الصوت . وهذا ما رأيت : في الركن الأخير من المغارة كانت هناك جثة أخرى جالسة ، الرأس مسترخٍ على الصدر ، والذراعان الطويلان مُتدلّيان . فاقتربتُ ونظرتُ . كانتِ الجثةُ هي لرجلٍ طويلٍ بأنفٍ كبير ، وشعرٍ رمادي ما زال على حاله ، ولحية سوداء .. وكانتِ الجثة مُتصلّبة من الجليد. وقلتُ عندها: «تُرى مَنْ يكون صاحب هذه الجثة ؟»

وسألني جود : « ألا تستطيع أن تُخمّن . ولِمَ لا يكون جوزي داسلفستر » .

وصرختُ : « مستحيل ! لقد مات منذ ثلاثمائة سنة » .

وأجاب : « ولِمَ لا ؟ فما الذي يمنعُه من البقاء هكذا لمدة ثلاثة آلاف سنة ، وهو مجمّد كما هو الآن ؟ أنظر ، هذه هي قطعة العظم التي رسم بها الخريطة » .

ـ « أجل » ، قال السير هنري ، « وهـذا هو المكان الذي حصل منه على الدماء لكي يُخطّ بها الخريطة » ، وأشار إلى جرحٍ صغير في الذراع الأيمن من الجثة .

وتركنا الجثتين في جلستهما الأبدية وسط الثلوج. وخرجنا من المغارة إلى أشعة الشمس ، ونحن نتساءل كم من الوقت كان يجب أن يمضي علينا حتى نُصبح مثلهما الآن .

طريق سليمان

وسرنا إلى طرف الجبل ، وكان الضباب قد انقشع قليلاً . وتحتنا ، وعند نهاية منحدرٍ طويل من الثلج ، رأينا بعضَ العشب الأخضر الذي كان يجري من خلاله جدولٌ مائيٌّ صغير. وقرب هذا الجدول وقفت مجموعةٌ من الغزلان . وقد ملأَنا هذا المنظر بالفرح. كان هناك طعامٌ بكثرة لو كان بمقدورنا الحصول عليه . وأخذنا بنادقَنا وصوّبنا بحرصٍ شديد ، كما ينبغي أن يُصوّبَ رجلٌ يعرف أنّ حياته تعتمد على هذه الطلقة. وأطلقنا النار . وما أنِ انقشع الدخان حتى رأينا ـ ويا للفرحة ! ـ رأينا حيواناً كبيراً يقع مُستلقياً على ظهره . وصرخنا صرخةَ النصر: لقد نجونا ، لن نموتَ من حاجةٍ إلى طعام . وبضعفنا الذي كنا عليه اندفعنا إلى أسفل المنحدر الثلجي ، وبعد عشر دقائق من الصيد ، كنا نلتهمُ اللحم النّيْء .. وما أن أكلنا حتى شعرنا

بالقوّة تدبُّ فينا من جديد . وبدأنا نتلفّتُ من حولنا . حوالى خمسة آلاف قـدم من تحتنا كانت هنـاك أميالٌ وأميال من أجمل ما رأت عيني من البلاد .. كان هنا حرجٌ كثيف ، وكان يوجد نهرٌ كبير تختـال مياهُه عبرَ طريقـه الفضي .. وإلى الشمال كانت هناك أرضٌ غنية بالعشب رأينا عليها قطيعاً من المواشي الــتي لا عدّ لها ولا حصر . وإلى جهة اليمين كانت هناك تلالٌ، تفصل بينها حقـــولٌ من القمح .. وجلسنا نسرحُ بأنظارنا بصمتٍ وهدوء نحو هذا المنظر الرائع .. ثم تكلم السير هنري فقال : « أليس هناك شيءٌ في الخريطة يُشير إلى طريق سليمان ؟ » .

واومأتُ برأسي ، وكنتُ ما أزال أمعنُ النظر في هذه البلاد ..

ـــ « حسناً ، أنظروا، ها هو الطريق ! » وأشار إلى يميننا.

ونظرتُ أنا وجود، ورأينا طريقاً فخماً شُقّ من الصخر، يبلغ عرضه خمسين قدماً على الأقـــل ، وقد نُظّم بشكل حسن ما زال يحتفظ به .

ـــ « حسناً » ، قال جود ، « إنه لا بدّ أن يكون قريباً منا إذا اتجهنا لناحية اليمين . أوَ ما كان من الأفضل لنا أن نكون قد بدأنا نحوه ؟ » .

ونزلنا إلى الطريق وسرنا عليه.. وفي مكانٍ ما كان الطريق يمرّ عبرَ جسرٍ تمّ بناؤه بشكلٍ جميل . وفي مكانٍ آخر كان يمرّ من خلال تلة ، وعلى الصخور عند الجوانب منه كانت هناك لوحاتٌ مرسومة يظهر فيها رجالٌ مسلّحون يقودون عربات معارك ، ومشهد معركة ، ومجموعة من الأسرى .

وفي منتصف النهار وصلنا إلى غابة وجدول صغير .. وهناك تناولنا طعامَنا ، وأشعلنا غلايينَنا ، واستحمّ جود . وفيما كان يجفّف قميصه الذي كان يرتديه ، ويمسح حذاءه ، ويصفّف شعره ، لاحظتُ فجأةً ومضةَ نور تمرّ قربَ رأسه .. فقفز جود وهو يلعن ويشتم . وهكذا فعلتُ أنا . وليس على بُعد أكثر من عشرين ياردة من مكان وقوفنا كان هناك مجموعة رجال . كانوا رجالاً طوالاً جداً ، ولونهم يميل إلى اللون الأسمر

الذهبي ، وكان بعضهم يضع ريشاً أسود على رأســـه ، ويرتدي معطفاً قصيراً من الجـلد . وأمامهم وقف شابٌ في حوالى السابعة عشرة من عمره..وكانت يده ما تزال مرفوعة..إنه هو الذي ألقى بالرمح .. وعنـدما نظرتُ إليه ، تقدّم منـــه جنديٌ عجوز وأمسكه من ذراعه وأفضى إليه بشيءٍ ما . ثم تقدّموا منا.. وهنا قبض السير هنري وجود على بُندقيّتهما. ومع ذلك واصل هؤلاء المواطنون تقدّمهم نحونا. وكان يبدو لي أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن البنـــادق .. وهنا صرختُ بالآخرين : « أخفضوا بنادقكم ! » . وتقدّمتُ ، وخاطبتُ الرجلَ الذي تكلم مـــع قاذف الرمح .. « تحيّاتي » ، قُلتُها باللغة الزولية ، وأنا لا أدري أيّةَ لغةٍ أستخدم . ودهشتُ لكونها كانت مفهومة .

ــ « تحية » ، أجاب الرجل مُتحدّثاً بالزولية ، ولكن بصيغة قديمة من اللغة ، « من أين قد جئتم ؟ لماذا وجوه ثلاثـــة منكم بيضاء ، ووجه الرابع مثل وجه أبناء أمّنا ؟ » .

وأشار إلى وجه أومبوبا . وبالفعل فقد رأيتُ وجه أومبوبا

مُشابهاً لوجوه الرجال الذين يقفون أمامي، وكذلك شكله..
وأجبت: «نحن أغراب، وجئنا بسلام».

ــ «إنك تكذب»، أجابني، «لأنّ الغرباء لا يستطيعون عبور الجبال. ولكن، ماذا يهمّ كذبك؟ فلطالما أنتم غرباء، يجب أن تموتوا، لأنه لا يحقّ لغرباء أن يعيشوا على أرض الكُوكْوانَزْ. إنه قانون الملك. إستعدّوا للموت أيها الغرباء».

ورأيتُ أيدي بعض الرجال تتحرّك إلى الأسفل باتجاه السكاكين الكبيرة الموجودة على جوانبهم.

ــ «ماذا يقول هذا الرجل؟»، سأل جود.

وأجبتُ بهدوء: «إنه يقول بأننا سنُقتل».

ــ «يا إلهي!»، تمتم جود، وهذه هي طريقتُه في الكلام عندما يكون قلقاً، ثم وضع يده على طقم أسنانه، وسحب الطقم العلوي إلى أسفل وأرجعه إلى الوراء من فمه وأطلق العنان لأسنانه بإحداث قرقعةٍ ما. لقد كانت حركة موفقة منه، لأنه في

اللحظة التي حدث فيها ذلك دبّ الذعر في نفوس الكوكوانز ، وأطلقوا صرخة من الرعب، وتراجعوا إلى الوراء بضعة ياردات.

ــ « ما الأمر ؟ » ، قلت .

ــ « إنها أسنانه » ، همس السير هنري بحماس ، « لقد حرّكهم . أخرجهم يا جود . أخرجهم ! » .

وأطاع جود ، وأخفى طقمَ أسنانه بيده .. وتقدّم الرجل ببطء ، مُتحمّساً ، ولكنه مع ذلك خائف .

ــ « كيف يكون هذا ، أيها الغرباء » ، سأل الرجلُ العجوز ، مُشيراً إلى جود ، الذي لم يكن يلبس شيئاً سوى حذاءٍ وقميص ، « كيف أنّ هذا الرجلَ السمين يضع على جسمه لباساً بينما ساقاه عاريتان ، ويلبس عيناً واحدة مُضيئة ، وله أسنانٌ تتحرّك من تلقاء نفسها ؟ » .

ــ « إفتح فمك » ، قلتُ لجود . وجعّد جود شفتيه وأبان فماً لا أسنان فيه كأنه فمُ طفلٍ رضيع حديث الولادة .

ـــ « أين هي أسنانه ؟ » ، صرخوا جميعاً ، « لقد رأيناها بأمّ أعيننا » ..

ومرّر جود يده على فمه ، ثم فتح شفتيه مرةً ثانية ، وكان هناك صفّان من الأسنان الجميلة .. وزعق الشاب الذي قذفنا بالرمح زعقةَ خوف ، واصطكّت ركبتا الرجل العجوز من الهلع ، ثم قال : « أرى بأنكم من غير البشر ، فهل سَبقَ لرجلٍ ولدتْهُ امرأةٌ أنْ كانت له عينٌ برّاقةٌ مستديرة ، أو أسنانٌ تظهر وتختفي ، تظهر وتذوب ، ثم تعود إلى النموّ من جديد ! عفوكم ، يا أسيادي » .

فقلتُ لهم : « إننا من عالمٍ آخر ، ونحن مثلكم من بني البشر . إننا جئنا من أكبر كوكب يُضيء في الليل » .

ـــ « أوه ! أوه ! » ، صرخوا باستغراب .

ـــ جئنا لنُقيم معكم وقتاً قصيراً ، ولنُباركَكم . والآن ، أما ينبغي أن نقتلَ صاحبَ اليدِ التي ألقتِ الرمحَ على عظَمةِ

هذا الذي تذهبُ أسنانُه وتجيء ؟ » .

ـــ « إصفحوا عنه ، يا سادتي » ، قال الرجل العجوز ، « إنه ابن الملك » .

ـــ « لعلّك » ، قلت ، « تشكّ بقدرتنا على قتله ؟ أنتَ ؟ » ناديتُ أومبوبا ، « أعطني الماسورة السحرية التي تتكلم » .

وناولني أومبوبا بندقية ، « أترون ذلك الغزال ؟ » ، قلتُ لهم ، مُشيراً إلى حيوان يقفُ قرب صخرةٍ على بعـــد حوالى سبعين ياردة ، « أخبروني ، هل من الممكن لرجل ولدته امرأة أن يقتله من هنا بصوتٍ ما ؟ » .

ـــ « هذا غير ممكن يا سيدي » ، أجاب الرجل العجوز .

ورفعتُ البندقية .. ودوّى صوتُ الطلقة ! وقفز الغزال في الهواء ، ثم سقط على الأرض ميّتاً .

ـــ « نحن مُقتنعون » ، قال الرجل العجوز ، « إنّ كل ساحرات شعبنا لا يستطعن الإتيان بمثل هذا . إسمعوا ، يا أبناء

الكواكب ، يا أبناء العين المضيئة والأسنان التي تختفي ، وهذا الذي يزأر كالرعد ويقتلُ من بعيد. إنني أنا إنفادوس، ابن كافا، الذي كان يوماً ملكاً على شعب كوكوانا . إنّ هذا الشاب نسكراجا ، هو ابن توالا ، الملك العظيم ، سيّد الكوكوانز ، حارس الطريق الكبير ، خوفاً من أعدائه ، قائد مئة ألف جندي، توالا صاحب العين الواحدة ، الأسود ، الرهيب » .

ــ « أهذا حقاً ؟ » ، قلتُ بعدم اكتراث ، « إذن ، قُدنا إلى توالا . إننا لا نتحدّثُ إلى مَنْ هم من طبقةٍ دنيا » .

وانحنى الرجل العجوز وتمتم بكلمات : « كوم ، كوم » ، التي عرفنا فيما بعد أنها تعني تحية ملكية . ثم استدار وخاطبَ رفاقه . وعلى الفور حملوا أغراضنا ، باستثناء البنادق التي لم يلمسوها . حتى أنهم أمسكوا ملابس جود ، وقد ذهبتْ كل محاولاته لاستردادها عبثاً . وعندما قال لهم أنه يريدُ لبسها ، أجاب إنفادوس : « أوَيغطّي سيدي ساقيه الجميلتين ؟ أوَقدِ اقترفنا إثماً بجعل سيدي يُقدم على مثل هذا الشيء ؟ » .

وأقنع السير هنري جود بضرورة الاستغناء عن ملابسه قائلاً له : « إنّ لك في هذه البلاد صفة معيّنة . يجب عليك من الآن فصاعداً أن تعيش بقميص وحذاء وعين زجاجية » .

وقلت : « أجل، إنك إن غيّرتَ شيئاً من هذا، فسيتوقف الناسُ هنا عن الاعتقاد بنا، وعندئذٍ ستكون حياتُنا لا تساوي بنساً » .

في أراضي الكوكوان

وسألتُ إنفادوس ، ونحن نسير ، عمّن شقّ هذه الطريق . فقال لي بأنها شُقّتْ منذ عصورٍ غابرة ، وأن لا أحدَ يعلم كيف ومتى ، ولا حتى المرأة الحكيمة جاجول التي عاشت مئاتٍ من السنين ..

وعندما سألته عن عدد جنـــود الملك ، قال : « عندما يستدعي الملك توالا رفاقه ، فإنهم يغطّون السهل » .

وعن حروب وقعت مؤخراً، قال : « وقعت هناك حربٌ حديثة بين بعضنا البعض . كلبٌ التهمَ كلباً » .

وفسّر هذا بقوله : « من عادتنا حين يُولدُ غلامان في وقت واحد ، على الأضعف منهما أن يموت . فقد كان للملك المرحوم، كافا، شقيقٌ وُلِدَ معه، ولكنّ أمّ الملك أخفتِ الطفل الضعيف.

وعندما مات الملك كافا ، أصبح شقيقه الأصغر ، إموتو ، ملكاً . لكنّ جاجول ، المرأة الحكيمة والرهيبة ، أظهرت توالا ، الشقيق الذي وُلد مع الملك . وقَتـلَ توالا إموتو . غير أنّ زوجة إموتو هربت مع مولودها الجديد ، إجنوزي ، ولم يرها أحدٌ منذ ذلك الحين » .

وسألته : « إذن ، لو عاش هذا الطفـل ، إجنوزي ، لـكان الآن هو الملك الحقيقي لشعب الكوكوانا ؟ » .

ــ هذا صحيح، إنّ علامة الوحش الزاحف موجودةٌ على جسمه في الوسط ، وهي العلامة التي يُوشم بها عادة الابن الأكبر للملك عند ولادته . لو عاش ، لكان ملكاً . ولكنه حتماً ميّت ».

كان أومبوبا يسير خلفي وهو يُصغي لحديثنا باهتمامٍ شديد. وعندما نظرتُ إلى وجهه ، كان يبدو كرجلٍ يُحاولُ جاهداً استعادةَ شيء ، قد نُسيَ منذ أمدٍ بعيد ، إلى ذاكرته .

وأرسلتْ رسالةٌ أمامنـا ، تُبلغ عن قدومنـا . وفي وقتٍ

مُبكّر من بعد الظهر اقتربنا من القرية . وعند اقترابنا رأينا فريقاً تلو فريقٍ من الرجال يخرجون راجلين من البوابات . وكان مشهدُ رؤيتهم فخماً ومبهجاً . وتقدّموا منا وهم يحملون الرماح الوميضة والريش المُتماوج ، وأقاموا صفّاً على كل جانبٍ من الطريق . ووقفوا هناك كأنهم مصنوعون من آلاتٍ حديدية حتى أصبحنا قُبالتهم . ثم بإشارةٍ أصدرها الضابط القائد ، انطلقتْ مئاتٌ من الحناجر في زئيرٍ مُفاجىء تهتفُ التحية الملكية : « كوم ! » .. وكان هؤلاء الرجال يُسمّون « الشهباء » بسبب لون دروعهم. وكانوا من أعظم جنود الأمة الكوكوانية، وكان إنفادوس قائدهم .

وحالما اجتزنا المكان ، تبِعنا هؤلاء « الشهباء » وساروا خلفنا على وقع أقدامٍ مُنتظمة كانت تهزّ الأرض .

وعند غروب الشمس، وقفنا لنستريحَ على قمة بعض التلال الموصولة بالطريق ، وهناك أمامنا ، وعلى سهلٍ جميل ، رأينا مدينةَ لُو ، عاصمةَ الكوكوانالاند .. وكان قُربها تلةٌ عجيبة على

شكل حدوة حصان ، أو مثـلَ نصف الهلال . وعلى بُعد ستين أو سبعين ميلاً كانت هناك ثلاثةُ جبالٍ مُكللة بالثلوج .

ورآنا إنفادوس ونحن ننظر إلى هذه الجبال ، فقــال : « الطريق ينتهي هناك . الجبال مليئةٌ بالكهوف. وهناك كان الرجال الحكماء في العهد القديم يفكّرون ويتأمّلون بأمور هذه البلاد . وهي الآن مدفن مُلوكنا » .

وهنا التفتُّ نحو الآخرين وقلتُ لهم: « هناك توجد كنوز الألماس للملك سليمان » .

وقال أومبوبا فجأةً وهو يقف على مقربة مني، شارد الذهن: « أجل ، إنّ الماسَ موجودٌ هنـاك بالتأكيد ، وبما أنكم تُحبّون مثلَ هذه الدمى والألعاب ، فسوف تحصلون عليها » .

ـــ « كيف تعلم ذلك يا أومبوبا؟ » ، سألتُه بشيء من الغضب لأنني لم أكن أحبّ أساليبه الغريبة .

فضحك وقال : « حلمتُ هذا في الليل » ، وذهب بعيداً .

ـــ « إذا كان أسيادي مرتاحين»، قال إنفادوس، « فسوف نواصلُ رحلتنا إلى لو . لقد أرسلتْ رسالة بهذا الخصوص ، وأعِدّ كوخ لأسيادي لهذه الليلة » .

وفي غضون ساعة وصلنا ، ووجدنا كوخاً مُعــــدّاً لكلّ واحد منا . كان الماء جاهزاً في الجرار ، فاغتسلنا . ثم أحضرتْ لنا بعضُ النساء الشابات الطعامَ على أطباقٍ خشبية . ونقلنا كل الأسرّة إلى كوخٍ واحدٍ لنكون معاً في أمان . واستلقينا للنوم ونحن نشعر بالتعب الشديد بعد رحلتنا الطويلة .

الملك توالا

عندما استيقظنا كانت الشمس تعلو قبّةَ السماء . وبعد أن تناولنا فطورنا ، ودخّنا غليوناً ، وصلتنا رسالة مع إنفادوس تُفيد بأنّ الملك توالا جاهزٌ لاستقبالنا إنْ كنا نرغب في الحضور إليه .

وأخذنا بنادقَنا وبعضَ الهدايا للملك ولزوجاته ولقوّاده . وبعد مسيرة بعض مئاتٍ من الياردات ، وصلنا إلى ساحة كبيرة جداً . وفي مُقابل البوابة على الجانب البعيد من الساحة المفتوحة كان هناك كوخٌ كبير يعيش الملك فيه .

كانت هناك فِرَقٌ من الجنود يتراوحُ عددهم بين سبعة أو ثمانية آلاف جندي . وكان هؤلاء الجنود يقفون بهدوءٍ تام كما لو أنهم قد قُدّوا من الحجر..كانت المساحة التي أمام الكوخ فارغة

من كل شيء باستثناء بضعة مقاعد .

جلسنا على ثلاثة مقاعد أشـــار إليها إنفادوس . ووقف أومبوبا خلفنا ، وإنفادوس قربَ باب الكوخ. وانتظرنا حوالي عشر دقائق أو أكثر وسطَ صمتٍ مُميت ، ونحن نعلم بأننـا كنا هدفاً لأنظارِ ثمانية آلاف عين .

وأخيراً فُتح بابُ الكـوخ وخرج منه شخصٌ ضخمٌ ، يتبعه الغلام ، سكراجا ، وقردٌ مُصبّر يرتدي معطفاً من الفرو، حسبما بدا لنا في أول الأمر .

وجلس الملك ، ووقف خلفـه سكراجا . وزحف القرد المصبَّر على قوائمه الأربـع وجلس تحت ظل الكوخ .. واستمرّ السكون .. ثم وقف الملك أمامنا .. منظرٌ مُرعبٌ حقـاً . كان رجلاً ضخماً يفيض شراً ويحمل وجهاً مخيفاً لم نرَ مثله من قبل . شفتاه غليظتان، أنفه مُسطّح، وله عينٌ سوداء يظهر فيها العنف، أما عينه الأخرى فقد ذهبت وحلّ مكانها جوفٌ في الوجه. كان على رأسه ريشٌ أبيض ، وجسمُه مُغطّى بدرعٍ لامع ، وفي يده

اليُمنى رمحٌ كبير ، وحول عُنقه رباطٌ من الذهب، وعلى جبهته رباطٌ آخر شعّت في وسطه ماسة كبيرة .

ولم يطل الصمت كثيراً حين رفـع الملك الرمح في يـده .. وفي الحال كان هناك ثمانية آلاف رمح مرفوع كجوابٍ على ذلك ، وانطلقت ثمانية آلاف حنجرة تدوّي بالهتـاف الملكي : « كوم » .. وتردّد الهتاف ثـلاث مرات ، وكانت الأرض تهتز في كل مرة من الصوت الذي كان يُشبه الرعد القوي .

ــ « الطاعة ، أيها الشعب » ، صاح صوتٌ رفيع بدا أنـه صوتُ القرد الذي كان في الظل .

ــ « إنه الملك .. إنه الملك » ، دوّى صوتُ ثمانية آلاف حنجرة .

ــ الطاعة للملك ، أيها الشعب .

وخيّم الهدوء مرةً أخرى ، هدوء قاتــــل . ثم تحطّم هذا الهدوء . فقد أسقط أحدُ الجنود درعَه . وأدار توالا عينه نحو

اتجاه الصوت .

ــ « تعال هنا » ، قال الملك في صوتٍ قاسٍ فظ . وتقدّم منه شاب جميل، « إنه درعُك الذي سقط، أيها الكلب ! أوَتجلبُ العارَ لي أمامَ عيون هؤلاء الغرباء القادمين من الكواكب ؟.. ما هو دفاعُك ؟ » .

ــ « حدَثَ هذا صُدفة » ، تمتم .

ــ إذن ستدفع ثمنَ هذا بالصدفة . لقد جعلتني غبيّـــاً . استعد للموت . يا سكراجا أرني كيف تستخدم رمحك . أقتل هذا الكلب » .

وخطا سكراجا إلى الأمام ، ثم لوّح برمحه مرّتين، وألقى به على الجندي الذي خرّ صريعاً على الفور .

وقال الملك : إنها ضربةٌ مُوفّقة . خذوه بعيداً .

وحملَ أربعة رجال جثة القتيل . وصاح صوتٌ رقيـــقٌ

انبعث من القرد الذي يُشبه الإنسان : « أزيلوا معالمَ الدماء . إنه أمرُ الملك ، وأمرُ الملك مُطاع » .

وتقدّمتْ فتاةٌ تحملُ جرّةً مملوءةً بالتراب ، وأفرغتْ جرّتها فوقَ الدماء ، مُزيلةً آثاره عن العين .

كان السير هنري يفورُ غضباً . فهمستُ في أذنه قائلاً : « إجلس ! إنّ حياتنا تعتمد على هذا الموقف » .

واستسلم لنصيحتي ولَزِمَ الصمت .

وبعد إبعاد الجثة ، خاطبَنا توالا قائلاً : « أيها البيض ، من أين جئتم ، وعن ماذا تبحثون ؟ » .

وأجبته : « جئنا من الكواكب. جئنا لنرى هذه البلاد».

ـــ تذكّروا أنّ النجوم بعيدةٌ جداً وأنتم هنا قريبون. فما رأيكم لو فعلتُ بكم مثلَ ما فعلتُ بهذا الرجل الذي حملوه؟

وضحكتُ بصوتٍ عالٍ .. رغم أنه لم يكن هناك مكانٌ

للضحك في قلبي .. وقلتُ له : « ألم يأتِكَ نبأ كيف أميتُ من بعيد ؟ » .

ـــ لقد أخبروني ذلك ، ولكنني لا أصدّقهم . أقتلوا رجلاً أمامي من بين هؤلاء الذين يقفون هناك .

ـــ « كلا » ، أجبت ، « نحن لا نقتلُ إلا في جزاء عادل . ولكن،أدخلْ إلينا فيلاً صغيراً عبرالبوابات، وأنا كفيلٌ بموته» .

ـــ « فليكنْ هذا » ، قال .

وهنا خاطبتُ السير هنري : « والآن ، يا سير هنري ، أنتَ من يجب أن يُطلق النار . أريدُ أن أظهرَ لهذا الشخص بأنني لستُ الساحر الوحيد في هذه المجموعة » .

وران الصمت . ثم رأينا فيلاً يتقدّم نحو البوابة ، ثم يعبرها ، ويتوقف هناك عند مُشاهدته هذا الجمهور الكبير .

ـــ « الآن ! » ، همست .. وارتفعتِ البندقية ، وأعقب

ذلك صوتُ فرقعة .. كان بعدها الحيوان مُستلقياً على الأرض ميتاً .. وتعالتْ همساتٌ من الدهشة والاعجاب من الذين كانوا حولنا .

وقلت للملك : « أنظر الآن كيف سأحطّم ذلك الرمح » .

وأطلقتُ النار ، فتحطّم نصلُ الرمح إلى قطعٍ صغيرة . وكان هناك همسٌ آخر من الدهشة .

وفي هذه الأثناء رأيتُ القرد الشبيه بالإنسان يخرجُ زاحفاً من تحت ظلّ الكوخ ، وعندما وصل إلى مكان جلوس الملك ، وقفَ على قدميه وألقى بالغطاء الذي كان يُغطّي وجهه . وكان هذا الوجه لامرأةٍ طاعنةٍ في السن ، غزتِ التجاعيدُ الصفراء وجهها . وبين هذه التجاعيد فمٌ ، ولم يكن هناك أنف . حقاً كان هذا الوجه كما لو أنه قد صيغ لها من جثة إنسانٍ ميّتٍ مُحنّط لولا وجود عينين سوداوتين كبيرتين ما زالتا تضجّان بالحركة والحياة .. كان رأسها عارياً تماماً ولا شعرَ عليه ، ولونه أصفر . إنها كانت جاجول ، الساحرة ، القديمة قِدَمَ الوجود .

وسرَت قشعريرةٌ من الخوف البـــارد في أجسادنا ونحن ننظر إلى هذا المشهد المخيـــف .. ووقفت هذه المخلوقةُ صامتةً للحظةٍ ما ، ثم أخرجت يداً عظميةً عليها أظافـــرُ يبلغ طولها حوالي بوصة، ووضعت يـدها على كتف توالا الملك ، وبدأت تقـول : « أصغ إليّ ، أيها الملـك ! أصغوا إليّ ، أيها الجنـود ! أصغي إليّ ، أيتها الجبـال والسهول والأنهـار ، يا موطن الشعب الكوكواندي . أصغوا إليّ ، أيها الرجال والنساء ، أيها الفتيان والعذارى ، ويا أيها الأطفال الذين لم تولدوا بعد . أصغوا إليّ ، يا كل مَنْ يحيا ومصيره إلى الزوال . أصغوا إليّ جميعـــاً : إنّ روحَ الحياة تكمن في داخلي ، وأنا التي تُخبر بما سيكون »..

وسيطر الهلعُ والخوفُ على قلوب الذين سمعوا هذا الكلام بما فيها قلوبنا .

واستطردت تقول : « الدماء ! الدماء ! الدماء ! أنهارٌ مـن دماء ، دماء في كل مكان .. عجوزٌ أنا ! إنني عجوز ! عرفـــني آباؤكم وآباء آبائكم ، وآباء آباء آبائكم. لقد رأيتُ كثيراً من الدماء.

عجباً ! عجباً ! ولكنني سأرى مزيداً منه قبلَ أن أموت .. أنتم يا رجالَ الكواكب البيض ، ماذا تنشدون ؟ هل تبحثون عن شخصٍ مفقود ؟ إنه ليس هنا . فمنذ مئات السنين لم تطأ قدمُ رجلٍ أبيضَ هذه الأرضَ قط، إلا ليموتَ بعد تركها. أوَجئتم من أجل الحجارة البيضاء ؟ ستجدونها عندما تجفّ الدماء ، ولكن ، هل ستعودون من حيث أتيتم ، أم تنوون البقاء معي ؟ يا للعجب ! يا للعجب ! ويا للعجب !.. وأنتَ يا صاحبَ الوجه الأسمر الفخور » ، وأشارت بإصبعها إلى أومبوبا ، « مَنْ أنت ؟ أعتقدُ بأنني أعرفك . أعتقدُ بأنني أستطيع أن أشمّ رائحةَ الدماء التي في قلبك . إنزعْ عنك هذا الثوب ! » .

وفجأةً أصبح وجهها كوجه الأموات ، وسقطت على الأرض مغشياً عليها .

وهبّ الملكُ واقفاً وكلُّ عضوٍ فيه يرتجف، ثم لوّح بيده. وعلى الفور بدأ الجنود بمغادرة المكان ، وفي غضون عشر دقائق، كان المكان فارغاً ما عدانا نحن والملك وبضعة خدم .

وقال لنا الملك : « أيها البيض ، يخطر لي أن أقتلكم . إنّ جاجول قد نطقتْ بكلماتٍ غريبة » .

وضحكتُ ، ثم قلت : « إحذر ، أيها الملك ، فليس من السهل قتلنا » .

عندها وضع يــــده على جبهته وأخذ يفكّر ، ثم قال : « إذهبوا بسلام . ستُقام في هذه الليلة حفلةٌ راقصةٌ كبرى ، وسوف تشاهدونها . غداً سأفكّر بالأمر » .

ــ « هذا أمرٌ حسن ، أيها الملك » ، أجبت .

وعاد بنا إنفادوس إلى أكواخنا .

كوخ الساحرة

عند وصولنا إلى كوخنا أشرتُ إلى إنفادوس للدخول معنا .. وقلتُ له : « الآن ، يا إنفادوس ، سنتحدّث معك » .

ــ « فليقُل سادتي ما يشاؤون » ، قال إنفادوس .

ــ « يبدو لنا » ، قلت ، « بأنّ توالا الملك هو رجلٌ ظالم » .

ــ هذا صحيح ، يا سادتي . إنّ الأرض تصرخُ من ظلمه. وستشهدون الليلةَ على ذلك . إنه الصيد الكبير للساحرة ، حيث يَقتل ويَذبح العديدَ من الناس بعد اتهامهم بالشعوذة . فإذا أراد الملك الاستيلاء على ماشية أو زوجة إنسان، أو أنه يخشى إنساناً، فإنّ جاجول أو بعضاً من نسائها مِمّن تتلمذنَ على يديها ، سوف يتّهمنَ هذا الرجل بأنه ساحر ، ثم يُقتل . إنّ الأرض مُنهكة

من توالا وأساليبه الحمراء .

وسألته : « إذن لماذا لا ينبذه الشعب يا إنفادوس ؟ » .

ــ إذا قُتل ، فإنّ سكراجا سوف يحكم مكانه ، وإنّ قلبَ سكراجا أكثر سواداً من قلب أبيه توالا . فلو أنّ إموتو لم يُذبح ، أو أنّ إجنوزي ، ولده ، قد عاش ، لكان الأمر مختلفاً . ولكن كلاهما مات .

ــ « كيف تعلم بأنّ إجنوزي هو ميّت ؟ » ، قال صوتٌ من ورائنا .

ــ « ماذا تعني أيها الغلام ؟ » ، سأل إنفادوس ، « مَنْ أمرك بالكلام ؟ » .

ــ « إسمع ، يا إنفادوس » ، كان الجواب ، « منذ سنوات قُتل الملك إموتو في هذا البلد . وفرّتْ زوجته بالصبي إجنوزي . أليس هذا صحيحاً ؟ » .

ــ إنه صحيح .

ـــ وقد قيل بأنّ المرأة وابنها قد ماتا في الجبـال . أليس هذا حقاً ؟

ـــ هذا حقٌّ أيضاً .

ـــ ومع ذلك ، فإنّ الأمّ والصبي إجنوزي لم يموتا . فلقد عبرا الجبـال وقادهما رجالٌ من رجال الصحراء المتجوّلين إلى ما وراء الرمـال ، حتى جاءا أخيراً إلى مكانٍ فيه ماءٌ وعشب وأشجار .

ـــ كيف تعلم ذلك ؟

ـــ إسمع . لقـد ماتتِ الأم . وعاش إجنـوزي لسنواتٍ عديدة وهو يعمل كخادمٍ ثم كجندي ، ولكنه كان يحمل في قلبه كل ما أخبرته أمه به عن مكانه الخاص. بعدئذ قابل إجنوزي بعضَ الرجال البيض الذين كانوا يرغبون في اكتشاف هذه الأرض المجهولة ، وانضمّ إليهم .

ـــ « بالتأكيد، أنت مجنون لتتحدّث بمثل هذا الحديث»،

قال الجنديُّ العجوز .

ـــ أحقاً تعتقد ذلك ؟ أنظر ، سأريك يا عمّاه .

ثم بحركةٍ واحدة ، نزَع أومبوبا قطعةَ الثياب التي كان يلفّ بها جسده ووقف عارياً أمامنا .

ـــ « أنظروا » ، قال ، « ما هذا ؟ » . وأشار إلى صورة الحيوان الزاحف المرسومة على جلده حول وسط جسمه .

ونظر إنفادوس بعينين مفتوحتين بشكلٍ واسع . ثم جثا على ركبتيه وقال : « كوم ! كوم ! إنه ابن أخي ، إنه الملك » .

ـــ إنهض ! لم أصبح الملك بعد ، ولكن ، بمساعدتك ، ومساعدة هؤلاء الرجال البيض الشجعان الذين هم أصدقائي ، سوف أصبح الملك . إنّ الساحرة العجوز جاجول على حقّ ، ستجري الدماء في البلاد أولاً ، وستجري دماؤها مع هذه الدماء ، إنْ كان فيها دماء ، لأنها قتلتْ والدي بكلماتها ، وتسبّبتْ في تشريد والدتي . والآن ، يا إنفادوس ، عليك أن تختار . فهل

تضعُ يديك بين يديّ وتُصبح رَجُلي ؟

وتقدّم الرجل العجوز إلى حيث كان يقف أومبوبا ، أو بالأحرى إجنوزي ، وجثا أمامه على ركبتيه وأخذ يده وقال : « إجنوزي ، أيها الملك الحقيقي للكوكوانا ، إنني أضعُ يديّ بين يديك ، وأنا رَجُلك حتى الموت . عندما كنتَ طفلاً رضيعاً كنتُ أحملُك وألاعبُك على ركبتي ، والآن سأضربُ بذراعي العجوز من أجلك ومن أجل الحرية » .

ـــ وأنتم ، أيها الرجال البيض ، أتُساعدونني ؟

وأخبرتُ السير هنري بما قال .

ـــ « لقد أحببتُ دوماً أومبوبا » ، قال السير هنري ، « وسأقفُ إلى جانبه في هذا العمل » .

ـــ « أخبره بأنني فتاهُ » ، قال جود ، « ولكنه يجب أن يسمحَ لي بارتداء بقية ملابسي » .

وقلتُ : « إنني أقفُ إلى جانب أصدقائي ، يا إجنوزي ،

وأنتَ تقف إلى جانبنا ، ونحن سنقف إلى جانبك . ولكننا ، وكما تعلم ، جئنا من أجل البحث عن شقيق السير هنري المفقود . يجب أن تساعدنا في العثور عليه » .

ــ « هذا ما سأفعله بالتأكيد » ، قال إجنوزي . « أخبرني يا إنفادوس ، هل وطأتْ قدمُ رجل أبيض هذه الأرض ؟ » .

ــ لا ، لا أحد ، يا إجنوزي .

والتفت إجنوزي إلى السير هنري وقال له : « كما سمعت ، إنه لم يكن هنا » .

وأجاب السير هنري بحزن : « حسناً ، حسناً ، لقد ضاع كل شيء . إنها مشيئة الله » .

ــ « والآن ، لِننتقلْ إلى حديث العمل » ، قلت ، وأنا أرغب في التهرّب من موضوع حديث مؤلم ، « ما هي خطتك ، يا إجنوزي ، لاستعادة مُلكك ؟ » .

ــ « ليست لديّ خطة » ، قال إجنوزي .

ـــ إنفادوس ، هل لديك خطة ؟ .

ـــ « الليلة » ، أجاب إنفادوس ، « ستكون هناك حفلةُ صيدٍ كبيرة للساحرة ، وستمتلئ القلوب كراهية من قِبَل العديد تجاه الملك توالا . وعند انتهاء حفلة الرقص ، سأتحدّث مع بعض الزعماء الكبار وأحضرهم كي يروا الملك الحقيقي. وأعتقد بأنه سيكون لديك غداً عشرون ألف رمح تحت إمرتك » .

وفي هذه اللحظة انطلقت صيحةٌ تقول بأنّ رسالةً قد جاءتنا من الملك . ودخل ثلاثة رجال يحملُ كلٌّ منهم درعاً وسيفاً ، وقال رئيسهم : « جئتُ إليكم بهدايا من مولاي الملك».

وأجبته : « بلّغ شكرنا للملك » .

وعندما خيّم الظلام ، بدأنا نلاحظُ الاستعدادات الجارية لحفلة الرقص . وشعّ نورُ القمر، ووصل إنفادوس وهو يرتدي الدرع ، ويصحبه حرسٌ من عشرين رجلاً ليذهبوا بنا إلى حفلة الرقص . وطلب منا إنفادوس ارتداء قمصان الدروع الجنزيرية

تحت ملابسنا الأخرى . وأخذنا معنـــا مسدساتنا ، وفؤوس الحرب .

ولدى وصولنا الساحة الكبيرة ، وجـــدنا هناك حوالى عشرين ألف رجل ، مُقسّمين إلى مجموعاتٍ صغيرة ، وبين كل مجموعة كان هناك ممرّ صغير للانفساح في المجال أمام المكتشفات الساحرات بالحركة والمرور .

ــ « إنهم هادئون وصامتون » ، قال جود .

وحقاً كان هذا الصمت بين هذه المجموعات الكبيرة من الأحياء غريباً ورهيباً .

وسألني إنفادوس عما يقول جود ، فأخبرته ، وقال عندئذ: « هؤلاء هم الذين يُخيّم شبحُ الموتِ فوق رؤوسهم » .

ــ « أخبرني » ، سألتُ إنفادوس، « هل نحن في خطر؟ ».

ــ لا أدري ، يا سادتي . آمل أن لا يكون . ولكن عليكم عدم الظهور بمظهر الخائف . إذا عشتم هذه الليلة فكل شيء

سيسير على ما يرام . إنّ الجنود يُتمتمون بكلماتٍ ضدّ الملك.

في وسط الساحة وُضعتْ بعضُ المقاعد . ولاحظنا مجموعةً صغيرة من الوجـــال قادمين من اتجاه الكوخ الملكي . فقال إنفادوس: « إنه الملك، وابنه سكراجا ، وجاجول، وانظروا، معهم هؤلاء الذين يَقتلون » .

وأشار إنفادوس إلى مجموعة صغيرة تتألف من حوالى اثـني عشر رجلاً ضخام الجثة ويحملون رماحاً .. واتخذ الملك مجلسه ، وجلستْ جاجول تحت قدميه ، ووقف الآخرون خلفه .

ــــ « أنظروا حولكم ، أيها السادة البيض » قال توالا، وهو يجولُ بعينه الواحدة القاسية من فريق لآخر ، « أنظروا كيف يرتجفون من الخوف ، كل هؤلاء الذين يحملون الشرّ في قـلوبهم ويخشون ُحكم السماء » .

ــــ « إبدأوا ! باشروا ! » ، صرختْ جاجول بصوتهـــا الرفيع ، « إنّ الكلابَ جائعة ، إنها تنبح من أجل الطعام . إبدأوا ! باشروا ! » .

وتَبِعَ ذلك صمتٌ رهيب . ثم رفع الملك رمحه ، فارتفعت عشرون ألف قدم وضربتْ على الأرض ثلاثَ مرات جاعلةً الأرض تهتز .

وانطلق صوتٌ حزينٌ يقول : « ما هي نهايةُ إنسان ولدته امرأة ؟ » .

وجاء الردّ من الحناجر كلها : « الموت ! » .

لم أستطع أن أتابعَ كلمات الأغنية باستثناء ما كان يتعلّق بآمال ومخاوف وأفراح الإنسان المختلفة . والآن بدتِ الأغنيةُ في بعض مقاطعها جميلة وهي تتحدّث عن الحرب ، ونهاية كل شيء ، نائحةً الموتى ، ولكنها اختُتمتْ فجــأةً بصيحةِ قلبٍ يتمزّق دوّى صداها بعيداً بشكلٍ كاد يُجمّد دماء عروقنــا .. وخيّم الصمتُ مرةً أخرى على المكان، ومرةً أخرى حطّم الملك هذا الصمت برفعه يده . وفي الحال ، سمعنا صوتَ أقدام، وبرز من بين كُتل الجنود أشخاصٌ غريبون مرعبون اتجهوا راكضين نحونا . كانوا نساءً مُسنّات . شعورهنّ البيضاء تلوح من خلفهن

أثناء العَدْوِ ، ووجوههنّ كانت مطليةً بخطوطٍ بيضاء وصفراء، وحول خصورهنّ عُلّقتْ أربطةٌ من عظامٍ بشريّة، وفي يد كلّ منهنّ عصاً معقـــوفة . كُنّ عشر نساء . ووقفنَ أمام جاجول وصِحْنَ قائلات : « أمّاه ، أيتها الأمّ الكبيرة ، نحن هنا » .

ـــ « حسن ! حسن ! » ، أجابت جاجول، « هل عيونكنّ ثاقبة ، يا مَنْ ترَون في الأماكن الظلماء ؟ » .

ـــ إنها حادة البصر ، يا أماه .

ـــ حسن ! حسن ! هل آذانكن مفتوحة ، يا مَنْ تسمعن الكلمات التي لا تخرج من اللسان ؟

ـــ إنها مفتوحةٌ ، يا أماه .

ـــ حسن ! حسن ! فهل تستطعن شمّ رائحةِ الدماء ؟ هل بمقدوركنّ تنظيفَ الأرض من هؤلاء الملعونين الذين يضمرون الشرّ للملك وجيرانهم ؟ أوَ جاهزاتٌ أنتنّ لتنفيذ عدل السماء ،

أتتنّ يا مَنْ علّمت ، يا مَنْ أطعِمنَ خـــبز حكمتي وشربنَ ماء سحري ؟

ـــ نعم ، نستطيع ، يا أماه .

ـــ إذهبنَ إذن ! إنّ النمرةَ يشحذون رماحهم . إذهبن !

وبصرخةٍ عنيفة أطلقَتها ، توزّعت تلميـذاتُ جاجول في كل اتجاهات الدائرة . لم نستطع مراقبـة الجميع ، فركّزنا بصرَنا على أقرب واحدة منهن . وعنـدما اقتربتْ من الجنـود أخذتْ ترقصُ رقصاً وحشياً ، وهي تتلوّى ، وتصرخ بهذه الكلمات : « إنني أشمه ، هذا الفاعل الشرير ، إنه قريبٌ مني ، هذا الذي سمم أمّه ، إنني أسمعُ أفكاره هذا الذي يضمر الشر للملك » .

ثم أخذتْ تتسارعُ في رقصتها حتى أصبحت مجنونـةً من التهيّج والانفعال وبدتْ لنـا عيناها وكأنها تـكاد تقفز مـــن رأسها .. وفجأةً توقفتْ ، وهدأتْ ، ككلب يشم رائحةَ أرنب. ثم بدأتْ تزحف بذراعٍ ممدودة نحو الجنود الذين كانوا أمامها . وبدا لنا أنها كلما كانت تقترب منهم كانت قواهم تخور ويبتعدون

عـن طريقها . أما فيا يتعلق بنـا نحن ، فكُنا ننظر إلى حركاتها وكأنما سحرٌ رهيب قد وقعنا تحت تأثيره .

وفجأةً جاءتِ النهاية . فقد قفزتْ بصرخةٍ عنيفة شرسة ، ولمستْ جندياً طويـلاً بعصاها الملتوية . وعلى الفـــور أمسك الجنديان اللذان يقفان إلى جانبه ، أمسكا بهذا الرجل التعيس ، وقاداه إلى الملك . وعندما جيء به تقدم منه جلّادان من النمرة .

ــ « أقتلوه » ، قال الملك .

ــ « أقتلوه » ، صرختْ جاجول .

وقُتل الرجل على الفور .. واقتيـــد رجلٌ آخر لنفس المصير . وتوالتْ لعبةُ الموت .

وقد نهضنا في إحدى المرات وحاولنا منعَ ذلك ، غير أنّ توالا لم يسمح لنا ، وقال : « دعوا القانون يأخذ مجراه . من الخير لنا أن يموتوا » .

وأخيراً ، تجمّعت المكتشفات الساحرات وهنّ مُنهكاتٍ

من هذا العمل الدموي . فاعتقدنا بأنّ هذا العمل قد انتهى ، ولكن الأمر كان غير ذلك ، فقد نهضت جاجول من مكانها واتجهت نحو الساحة ، واندفعتْ بعنفٍ مثل طالباتها نحو رجل طويل يقف في مقدمة الصفوف ولمسته . وما أن فعلتْ ذلك ، حتى تعالتْ صرخةٌ من الرجال الذين يقودهم . وعلمنا فيما بعد بأنه كان رجلاً على جانبٍ كبير من السلطة والجاه ، فهو ابن عم الملك .. ثم أخذت جاجول تقفز هنا وهناك ، وبدأت تقترب منا أكثر فأكثر .. وهنا صاح جود قائلاً : « أشنقوني إن لم يصحّ ظني بأنها ستاوس اللعبة علينا ! » .

ــ « مستحيل » ، قال السير هنري .

أقرب فأقرب رقصت جاجول أمامنا ، وكان كل إنسان بين هذا الجمهور الكبير يُراقب تحركاتها بعيونٍ قلقة . وأخيراً ، توقفت عن الرقص .

ــ « دورُ مَنْ سيكون ؟ » ، سأل السير هنري نفسه .

وفي لحظةٍ زالت كلُّ الشكوك ، حين اندفعتْ ولمستْ

أومبوبا (إجنوزي) على كتفه ، ثم صاحت قائلة : « إنني أشتمّ منه رائحةَ الخيانة . أقتلوه ! إنه مفعمٌ بالشر . أقتلوه ، هذا الغريب ، أقتلوه قبل أن تجريَ الدماء بسببه ، إذبحه أيها الملك».

وران صمتٌ أتاحَ لي الاستفادةَ منه. فصرختُ وأنا أنهضُ من على مقعدي قائلاً : « أيها الملك . إنّ هذا الرجل هو خادمٌ لضيوفك . مَنْ يُؤذِه يُؤذنا. فباسم القانون الذي يحكم العلاقة بين الضيوف والمضيف ، أطالب بحمايته » .

ــ « إنّ جاجول ، أمّ المكتشفات الساحرات ، قد اشتمّت منه رائحة الخيانة .. يجب أن يموت » ، كان الجوابُ الغاضب .

ــ « لن يموت » ، أجبت ، « مَنْ يحاول لمسه ، فهو ميّت لا محالة » .

ــ « أقبضوا عليه ! » ، زأر صوت توالا إلى الذبّاحين الذين وقفوا حولنا وهم ينقطون دماً أحمر من قتلاهم .

ــ « تراجعوا ، أيها الكلاب ! » ، صحتُ بهم ، « إن كنتم ترومون رؤيةَ ضوء الغد ، إلمسوا شعرةً من رأسه ، لتكون نهاية مليككم » .

وصوّبتُ مسدّسي نحو توالا . وشهرَ السير هنري وجود مسدسيهما أيضاً ، وصوّب السير هنري مسدسه نحو قائدِ مجموعةِ القتلة ، فيما صوّبه جود نحو جاجول . وتراجعَ توالا إلى الوراء عندما رأى ماسورةَ مسدسي موجهة بشكلٍ مستقيم نحو صدره .

ــ « حسناً » ، قلت ، « ما هو قرارُك يا توالا ؟ » .

فتكلم وقال : « لقد طالبتم بأن يكون ضيفي . لهذا السبب ، وليس من الخوف أو مما تقدرون على فعله ، فإني أبقي على حياته » .

ــ « هذا حسن » ، أجبتُ بهدوء ، « إننا مُتعبون من مشاهدة الموت ونرغب في النوم . فهلِ انتهت حفلةُ الرقص ؟ » .

ــ « لقد انتهت » ، قال توالا في صوتٍ منخفضٍ وغاضب ،

« دعوا هذه الكلاب الميّتة»، وأشار إلى الصف الطويل ممن ذُبحوا « يُلقون إلى الكلاب » .

ثم رفع رمحه . وبدأ الجنود بالانسحاب مـــن الساحة في هدوء تام . وبقي منهم فرقـةٌ صغيرة لسحب جثث هؤلاء الذين ضُحّيَ بهم .

ـــ « يا أومبوبا » ، قال السير هنري عندما جلسنا أخيراً في أكواخنا ، « أنت محظوظ ، فقـد كان جلدُك على وشك أن يُحدَثَ فيه ثقبٌ هوائي » .

ـــ « إنـني شاكر » ، كان جوابُ أومبـوبا ، « ولن أنسى لكم هذا » .

تقديم الدليل

كان الليل يقتربُ من الفجر عندما سمعنا وقعَ أقدام . ودخلَ علينا إنفادوس يصحبُه ستةٌ من الزعماء ذوي المظهر الحسن ، وقال : « يا سادتي ويا إجنوزي ، الملك الحقيقي لشعب كوكوانا، لقد أحضرتُ معي هؤلاء الرجال العظام الذين يسيطر كلٌّ منهم على ثلاثة آلاف جندي . والآن لِندعْهم يشاهدون علامةَ الحيوان الزاحف ويسمعون قصّتك، وذلك حتى يقرروا فيما إذا كانوا سينضمون إليك ضد الملك توالا » .

وخلع إجنوزي الثوب الذي كان حوله وأظهر لهم العلامة. واقترب كلٌّ زعيم بدوره وأخذ يتفحّص العلامة على ضوء المصباح الخافت . ثم لبس إجنوزي الرداء ، وأعاد حكاية القصة التي رواها لنا في الصباح .

— «الآن وقد سمعتم ، أيها الزعماء» ، قال إنفادوس ، «فما هو قولكم ؟ أوَتقفون إلى جانب هذا الرجل وتساندونه كي يصبح ملكاً كما كان والده ، أم أنكم غير فاعلين ؟ إنّ الأرض تئنّ وتصيح ضد توالا ، وإنّ دماء الشعب تسيلُ كالأمواه في الربيع . لقد شاهدتم ما حدث هذه الليلة» .

وتقدم كبيرُ الزعماء الستة إلى الأمام وقال مُحيّياً : «إنّ قولك صحيح ، يا إنفادوس ، الأرضُ تئنُّ وتصيح . لقد كان أخي بين الذين أعدموا في هذه الليلة . ولكن هذا الأمر خطير. كثيرٌ من الدماء ستجري . كثيرون هم الذين سيقفون إلى جانب الملك توالا ، لأنّ الرجال ينحنون أمام الشمس التي ما تزال ترسل إشعاعها وبريقها في السماء أكثر مما ينحنون أمام الشمس التي لم تُشرق بعد . إن هؤلاء الرجال البيض القادمين من النجوم لديهم سحر عظيم ، وإجنوزي هو تحت حمايتهم . فإن كان حقاً هو الملك الحقيقي ، فليقدّم للشعب دليلاً على أنه الملك الحقيقي. عندئذٍ سينضمّ هؤلاء إلينا وهم يعلمون أنّ سحرَ الرجال البيض معهم» .

ووافق الرجال الخمسة الآخرون على هذا الرأي . وقلتُ له : « لديكم الدليل بالصورة للحيوان الزاحف » .

ـــ ولكن هذا غير كاف ، فقد يكون هذا موضوعاً منذ طفولة الرجل . أرونا الدليل . لن نتحرّك قبل أن نرى الدليل .

كان من الصعب عليّ أن أجيب . فالتفتُّ نحو السير هنري وجود وشرحتُ لهما ما قد قيل . فقال جود : « أعتقدُ بأنني أعرف ما يجب فعله . سَلْهُمْ أن يُمهلونا لحظةً للتفكير » .

واتجه جود نحو صندوقٍ صغير كان يحمله معه ، وأخرجَ كتاباً صغيراً مطبوعاً ، ثم قال : « أنظروا هنا ، أنتم أيها الرفاق ، أليس غداً هو الرابع من حزيران ؟ » .

وأجبنا بأنه كذلك .

ـــ حسنٌ جداً ، ها قد حصلنا على الدليل ، الرابع من حزيران ، يبدأ خسوفُ القمر في الساعة الثامنة والربع بتوقيت غرينتش ، وهذا الخسوف القمري يمكن مشاهدته في

تِتريف ، في جنوب أفريقيا. هذا هو دليلكم ! أخبروهم بأننـــا سنحجبُ نورَ القمر غداً ، ونجعله ظلاماً .

كانت هذه الفكرة رائعة ، وكانت نقطةُ الضعف بها احتمال الخطأ في كتاب جود . فإن أخفقنا في تقديم دليلنا ، فهي النهايـة لنا، وهي النهاية لفرصةإجنوزي في أن يُصبح ملك الكوكوانز.

ــ « هَبْ أنّ الكتاب خطأ»، قال السير هنري لجود وهو يُقلّب صفحات الكتاب .

ــ « لا أرى سبباً لافتراض أيّ شيء من هذا النــوع » ، كان جوابه ، « إنــني أحاول إيجاد الفرق في التوقيت ، وأعتقـد بأنّ الخسوف سوف يبدأ هنا في حوالي العاشرة من ليل الغد ، وسيستمر حتى الثانية عشرة والنصف » .

ــ « حسناً » ، قال السير هنري ، « أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نُجازف » .

واتفقتُ معه في الرأي ، رغم كل شكوكي ، وأرسلتُ

أومبوبا لاستدعاء الزعماء .. وعندما وصلوا خاطبتُهم هكذا :
« يا رجال الكوكوانز العظام ، وأنتَ ، يا إنفادوس ، إسمعوا .
إننا لا نحبّ إظهارَ قوّتنا . ولكن ، وبما أنّ هذا الأمر خطير ،
وأننا ساخطون على الملك ، فقد قرّرنا تقديم دليل على قوّتنا
يراهُ الجميع » .

وقُدتهم إلى باب الكوخ ، وأشرتُ إلى القرص الأحمر
للقمر الذاوي . وقلتُ لهم : « ماذا ترون هناك ؟ » .

ــ « إننا نرى القمر المحتضر » ، أجابوا .

ــ غداً ، وقبل ساعتين من منتصف الليل، سنجعلُ القمر
يغيبُ ويُلتهم لساعةٍ ونصف الساعة من الوقت . وسيغشى
الأرضَ ظلامٌ حالك ، وهذا سيكون دليل على أنّ إجنوزي
هو حقاً ملك الكوكوانز. فإنْ فعلنا هذا، فهل أنتم مقتنعون؟».

ــ « أجل ، يا سادتي » ، أجاب الرجل الغليظ التكوين
بابتسامة ، وقال مُضيفاً : « إنْ فعلتم هذا فسنكون مقتنعين

تماماً. اليوم ، وبعد ساعتين من غروب الشمس، سوف يستدعي توالا سادتي لكي يشاهدوا رقصاً للفتيات . وبعد ساعة من بدء الرقص ، فإنّ الفتاة التي يظنها توالا على أنها الأجمل سوف تُقتل من قبل سكراجا ، ابن الملك ، وتقدّم ذبيحة وقرباناً لهؤلاء الصامتين ، أعني بهم الآلهة الحجارة الذين يجلسون ويحرسون على تلك الجبال » .. وأشار إلى ثلاث تلالٍ غريبة الشكل حيث من المفترض أن تكون هناك نهاية طريق سليمان..« فليكلّم أسيادي القمر ويُنقذوا حياة فتاةٍ عذراء، وسيؤمن الشعب بالحقيقة » .

— « هناك ، وعلى بعد ميلين من لو » ، قال إنفادوس ، « توجد تلةٌ تتخذ شكلَ قمر جديد . وهناك جنودي وثلاثُ فِرَقٍ من الجنود يأتمرون بأمر هؤلاء الزعماء ، ينتظرون .. وسنضع خطةً لجعل فرقتين أو ثلاثِ فِرَقٍ أخرى تنتقلُ إلى هناك أيضاً . عندئذٍ ، وإن كان سادتي يستطيعون حقاً إظلام القمر ، فإنني سأتسلّل بكم تحت جُنح الظلام إلى ذلك المكان . فهناك ستكونون آمنين ، ومن هناك سنشنّ الحربَ على الملك توالا » .

— « هذه فكرةٌ رائعة » ، قلت ، « والآن اتركونا ننام ونُحضّر سحرنا » . وغادروا المكان .

يومٌ هادئٌ مرّ علينا .. وأخيراً غربتِ الشمس .. وفي حوالى الثامنة والنصف تلقينا رسالةً من توالا يأمرنا فيها حضور الحفل السنوي الكبير لرقص الفتيات .. وارتدينا قمصان الدروع وأخذنا بنادقنا .

كانتِ الساحة الكبيرة أمام كوخ الملك مختلفة كثيراً في هذه المرة .. ففي مكان صفوف العسكر كانت هناك فرقٌ من فتيات الكوكوانا ، وكل فتاة مُتوّجة بالزهور ، وتحمل في يدها ورقة نباتٍ كبيرة وزهرة بيضاء في اليد الأخرى . وفي وسط المكان المُنوّر بضوء القمر ، جلس توالا ، وجلست تحت قدميه جاجول العجوز ، وإلى جانبه وقف إنفادوس، سكراجا ، واثنا عشر حارساً . وكان هناك أيضاً حوالى عشرين زعيماً كان بين الذين عرفتُ منهم مُعظم أصدقائنا الذين التقينا بهم في الليلة الماضية .

وحيّانا توالا بمظهرٍ من الأدب ، مع أنني رأيته يَرْمُــقُ أومبوبا بنظرةٍ شرسة .

ـــ « أهلاً بكم مرةً أخرى »، قال ، « وأهلاً بك أنت أيضاً أيها الأسـود . لو كان لجاجول ما أرادت ، لكنتَ الآنَ في عداد الموتى » .

ـــ « إنني أستطيع قتلك قبل أن تقتلني ، أيها الملك» ، كان جواب إجنوزي بهدوء ، « وستُصبح جيفةً قبل أن تتوقف أطرافي عن الحركة » .

ـــ « إنك تتـكلم بجرأة، أيها الفتى »، أجاب توالا بغضب ، « لا تتجرّأ كثيراً .. ولْيبدأ الرقص ! » .

وقفزتِ الفتياتُ المتوّجات بالزهور ، وأخذن يُغنّـــين أغنيةً جميلة ويُلوّحن بأزهارهنّ البيضاء. وتابعنَ الرقص وهنّ شاحبات الوجه حتى أخذ التعب منهنّ كل مأخذ وســط بهجة الحاضرين وسرورهم . وأخيراً توقفن عن الرقص ، لِتَقفزَ من

بينهنّ امرأةٌ شابةٌ جميلة،وأخذتْ ترقص أمامنا برشاقةٍ وروعة. وأخيراً ، انسحبتْ من حلبة الرقص لتحلّ محلها أخرى .. ثم أخرى .. وأخرى .. وهكذا .. إلا أنّ واحدةً من هاتيك النساء لم تكن مثل المرأة الأولى في الرشاقة والجمال .

وعندما أنهتْ جميعُ الفتيات المُختارات رقصاتهن ، رفع الملك يده وقال : « مَنْ منهنّ الأجمل في نظركم ، أيها البيض؟ ».

ــ « الأولى » ، قلتُ بغير تفكيرٍ أو انتباه . ثم ندمتُ على ما قلت ، لأنّ إنفادوس كان قد أخبرنا بأنّ أجملَ امرأةٍ سوف تُقدّم ذبيحة للآلهة .

وصاحت جاجول : « يجب أن تموت ! » .

ــ « لماذا ، أيها الملك ؟ » ، قلتُ وأنا أحاول كتم غضبي بصعوبة .

وضحك توالا وهو يُجيبني : « إنها عادتنا . إنّ الآلهة تُريد قُرباناً لها ، وإلا حلّ الشر عليّ وعلى بيتي » .

ثم التفتَ إلى الحرس وقال : « أحضروها إلى هنا ، وأنت يا سكراجا إشحذْ رمحك » .

وخطا رجلان إلى الأمام. وعرفتِ الفتاةُ بالأمر ، فزعقتْ بصوتٍ عالٍ وحاولتِ الهرب. ولكنّ أيادٍ قويّة أمسكتْ بها وأحضرتها أمامنا وهي تكافح من أجل الخلاص وتبكي .

ــ « ما اسمكِ ؟ » ، قالت جاجول ، « ماذا ؟ ألا تُجيبين ؟ أينبغي على ابن الملك أن يقومَ بعمله فوراً ؟ » .

وتقدّم سكراجا خطوةً ورفع رمحه . ورأيتُ يدَ جود تزحف نحو مسدسه . وكفّتِ الفتاةُ عن المقاومة ، ووقفتْ ترتجف من الخوف ، ثم قالت : « عفوك يا أمّاه ، إنّ اسمي فُولاتا . لماذا يجب أن أموت ؟ فأنا لم أقترف ذنباً ! » .

ــ « تجمّلي بالعزاء » ، قالتِ المرأةُ العجوز بصوتٍ كريه تملؤه سخريةُ الشر ، « يجب أن تموتي لتكوني قرباناً لهؤلاء العظام القدامى الذين يجلسون هناك » ، وأشارت إلى الجبال ، « ومن

الأفضل لكِ أن تنامي في الليـل من أن تتعبي في النهار . الموتُ أفضل لكِ من الحياة ، وستموتين على يد ابن الملك » .

وصرختِ الفتـاةُ فولاتا بصوتٍ عالٍ يملؤه اليأس قائـلة : « أيتها الظالمة ! أأموت وأنا في ريعان الصبـــا ! ماذا فعلتُ حتى لا أرى شروقَ الشمس بعد الليل ، أو النجوم في المسـاء ، ولا أعود أجمعُ الأزهار عندما يثقلها الندى ، ولا أصغي إلى خرير الميـاه الضاحـكة ، ولا أرى كوخ أبي مرةً أخرى ، ولا أحسّ بقبلة أمي ، ولا أعتني بالحمَل المريض ، ولا حبيبٌ يضع ذراعه حولي وينظر إلى عيني ، ولا أطفال يولدون مني ؟ أيتها الظالمة .. ظالمة .. ظالمة » .

لكنّ هذا لم يحرّك جاجول أو سيّد جاجول ، مع أني رأيتُ الشفقة تبدو على وجوه الحرس والزعماء . أما جود ، فقد أطلق صرخةً عنيفـة من الغضب ، وقام بحركةٍ كما لو أنه ينـوي مساعدتها .

وبسرعة خاطر المرأة رأتِ الفتاةُ ماذا كان يدور في رأسه،

فألقت بنفسها أمامه قائلة : « أيها الوالد الأبيض من الكواكب ، أنقذني من هؤلاء الظالمين ، ومن جاجول » .

ـــ « حسناً ، يا فتاتي ، سأهتم بك » ، قال جود ، « تعالي ، إنهضي » ، قال ثم انحنى وأمسك يدها .

وهنا التفت توالا إلى ابنه ، وأعطاه الإشارة ، فتقدّم سكراجا ورمحه مرفوع .

ـــ « والآن جاء وقتك » ، همس السير هنري في أذني ، « ماذا تنتظر ؟ » .

ـــ « إنني أنتظر خسوف القمر » ، أجبت ، « إنّ عيني معلّقة على القمر منذ نصف ساعة ، ولم أرَ أيّ تحوّلٍ فيه » .

ـــ حسناً ، يجب أن تُجازف الآن ، وإلا قُتلتِ الفتاة .

وخطوتُ لأقفَ بين الفتاة ورمح سكراجا وأقول: « أيها الملك ، إنّ هذا الأمرَ لن يكون » .

ـــ لن يكون ا ُهو ! أيها الحراس ، اقبضـوا على هؤلاء الرجال !

وعند هذه الصرخة ، ركض رجـالٌ مسلّحون بسرعة من وراء الكوخ . وبـدا واضحاً أنهم وُضعوا هناك ليكونوا على أهبة الاستعداد .

السير هنري وجود وأومبوبا ، وقفوا إلى جانبي ، ورفعوا بنادقهم .

وصرختُ قائلاً : « قِفوا ! نحن رجالُ الكواكب نقول بأنّ هذا الأمر لن يتم . تقدّموا ولو خطوةً واحـدة .. ونحن سنُطفىء نورَ القمر لِيعمّ الأرضَ الظـلام . نحـن الذين نقطن دارَ القمر نستطيـع أن نفعل هـذا . تجرّأوا على العصيـــان وستذوقون طعمَ سحرنا » .

ـــ « إسمعوه ! إسمعوا كذبه ! »، صاحت جاجول ، « هذا الذي يدّعي بأنه يُطفىء نورَ القمر كالمصباح ؛ فليفعـلْ ، ونحن

نُبقي على حياة الفتـاة . دعوه يفعل ، وإلا فالموت له مع الفتـاة ومع هؤلاء الذين معه » .

وأخذتُ أنظر إلى القمر بيأس . وتملّكني الفرح عندما رأيتُ أنّ جود لم يُخطىء . فقد كان على طرف القمر دائرة خافتة من الظل . ثم رفعتُ يدي نحو السماء وتلوتُ بعض سطور من شعرٍ انكليزي بصوتٍ مهيب . وتَبِعني السير هنري بقراءة مزيد من الشعر . ثم خاطب جود ملكة الليل بسيلٍ من اللعنات. وزحف الظل على الوجه المضيء من القمر .. وصرختُ قـائلاً : « أنظر ، أيها الملك . أنظري ، يا جاجول ! أنظروا إن كان رجال الكواكب يكذبون ! » .

وانفجرتْ صرخةُ رعبٍ من المُشاهدين . فبعضهم وقـف جامداً من الخوف ، وبعضهم ألقى بنفسه وجثا على ركبتيه وصرخ عالياً .

ــ « تابع يا جود » ، همستُ ، « لم أعد أذكر مزيداً من أبيات الشعر . يا للعنة » .

وأطاعني جود بخلقٍ نبيل . واستمرّ يتلو أبياتاً من الشعر لعشر دقائق دون توقف ودون أن يكرّر بيتاً واحداً .

وبدأتْ حلقةُ الظلام تزحف ، وعيون الحاضرين تشخص نحو السماء . وخيّم صمتٌ كصمت الموت .. فنصفُ القمر قد اختفى . وتوالى الاحتجاب على النصف الآخر شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح من النادر رؤية الوجوه الشرسة التي أمامنا .

ــ « إنّ القمر يحتضر . السحرة البيض قتلوا القمر » ، صاح الأمير سكراجا أخيراً .. ثم ، بدافع الجنون أو الغضب ، أو كليهما معاً ، رفع رمحه وقذفه بكل قوّته نحو صدر السير هنري . لقد نسيَ القمصان الواقية التي قدّمها لنا الملك . وارتطم الرمح بالدرع دون أن يُؤذي السير هنري ، وقبل أن يكرّر الضربة ، أمسك السير هنري بالرمح وألقى به بشكلٍ مستقيم نحوه ، فسقط سكراجا ميّتاً .

وأمامَ هذا المشهد ، وبسبب الخوف الذي تملّكهنّ من جراء الظلام ، تدافعتِ الفتياتُ مُولولات نحو البوابة. وهرب

الملك متبوعاً بحرسه وجاجول إلى الأكواخ .

وبعد دقيقة وجدنا أنفسنا نحن وفولاتا وإنفادوس والزعماء الذين حضروا إلينا وحيدين في المكان مع جثة سكراجا.. وهنا قلت : « أيها الزعماء . إنِ اقتنعتم ، دعـــونا نذهب بسرعة إلى المكان الذي تحدثتم عنه » .

وقبل أن نصلَ إلى البوابة ، كان القمر قد اختفى كليـــاً . فأمسكَ كلٌ منا بيد الآخر ، وبدأنا نشقُ طريقنا وسط الظلام.

قبل المعركة

وصلنا أخيراً إلى التلة حيث إنفادوس والزعماء الستة وضعوا رحالهم. ووجدنا هناك جمهوراً من الرجال قد استيقظوا من نومهم ، وهم يرتجفون من الخوف، وقد التصقوا ببعضهم البعض نتيجة الخوف العظيم الذي انتابهم من الحدث الذي كانوا يشاهدونه .

ووصلنا إلى كوخ في الوسط حيث وجدنا رجالاً بانتظارنا وهم يحملون أمتعتنا القليلة التي تركناها في لو . كما أنهم أحضروا ملابسَ جود المفقودة منذ وقتٍ طويل .

وعند طلوع الشمس ، تجمّع الجنود في الساحة المفتوحة حيث أخذ إنفادوس وإجنوزي بمخاطبتهم .

وأطلقوا الهتاف الملكي « كوم » الذي يدل على أنهم قَبِلوا

إجنوزي ملكاً لهم .

ثم بدأنا بالعمل لحماية المكان من كل الطرق الممكنة .

وأخيراً ، وفي منتصف الليل ، كل ما يمكن إنجازه قد أنجز . فأنا وإجنوزي وبعض الزعماء أقمنا سواراً حول المكان . وعدنا ، نتلمّس طريقنا بين آلاف الرجال النائمين . وكان ضوء القمر يشعّ على رماحهم ويتلاعب على وجوههم .

ــ « كم من هؤلاء سيبقى حياً في مثل هذا الوقت من الغد ؟ » ، سأل السير هنري .

وهززتُ رأسي.. فغداً ، الآلاف، ولعلّنا نحن من بينهم، سيموتون .

وحده القمر الذي سيظل يشعّ بسلام ، ورياح الليل ستحرّكُ العشبَ بلطفٍ ولين ، وستستريح الأرض الواسعة ، كما استراحت قبل أن نكون ، وستبقى هكذا طويلاً بعد أن نُصبح في عداد المنسيّين .

يموتُ الإنسان ولا يتوقف العالم .. وتبقى الآثار والقبر .
وقد يكون الاسمُ ضاع حقاً ، ولكنّ الأنفاس التي ردّدها
ما تزال تحرّك أعالي الأشجار على الجبال ، وصوتُ الكلمات
التي تفوّه بها ما تزال تدوّي عبر الفضاء المرّصع بالنجوم .

المعركة

عند شروق الشمس ، نهضنا وارتدينا ملابسنا من أجل المعركة . ولبس السير هنري الزي الكامل للجندي الكوكواني ، وكان منظره جميلاً في هذا الزي .. وخرجنا فوجدنا إنفادوس وسط رجاله ، الشهباء ، خيرة رجال جيش الكوكوانا . وانضمّ إلينا إجنوزي . وكان الرجال يراقبون جيش توالا وهو يبدأ بالزحف خارج لو في صفٍّ طويل يشبه صفوف النمل .

ــ « عمّاه ، إنفادوس » ، قال إجنوزي ، « إنّ قلبي ثابت . سأضربُ توالا في هذا اليوم ، وأضع مصيري على هذه الضربة » .

ــ « سنرى » ، أجبتُ أنا .

ولكنه استطرد يقول : « دعْ فرقتك يا عماه تتقدّم مع

فرقةٍ أخرى نحو لسان الأرض الأخضر . وعندما يرى توالا الفرقة ، فإنه سيُلقي بكل جنوده نحوها لتدميرها . لكنّ المكان ضيّق ، وستأتي الفرق كلها دفعة واحدة ، في وقتٍ واحد . وفيما تكون عيونُ جيش توالا مثبّتة كلها على المعركة الجارية فوق اللسان الأخضر ، فإنّ بقيةَ جنودنا سيزحفون على طول قرني التلة ، ويُطبقون على جيش توالا من ناحيتين ، وبذا يتمّ تدميره تدميراً كاملاً » .

وأعدّت ترتيباتُ الهجوم بسرعة ، لأنّ الجنود كانوا مدرّبين بشكلٍ جيّد .. وبسرعةٍ تناول الرجال وجبة طعام ، ثم تقدّموا لاتخاذ مواقعهم .

وبعد هذا جاء جود ليلقاني والسير هنري ، ويقول : « وداعاً ، أيها الرفاق، سأنطلق على رأس المجموعة اليمنى، ولقد جئتُ لأصافحكما ، لأنه قد يُقدّر لنا عدم الالتقاء ثانية » .

وتصافحنا بصمت. ثم قال السير هنري: « إنه عمل غريب، فأنا لا أتوقع رؤية شمس الغد . سأكون مع الجنود الشبباء الذين

سيحاربون حتى آخر رجلٍ منهم ليجعلوا بقيـة الجنود يستولون على كل الجهات . حسـناً ، فليكن هذا .. وفي هـذا سيكون موتُ إنسان . وداعاً ، أيها الرفاق » .

وغادر جود . ورافق إنفادوس السير هنري ليأخذ مكانـه في مقدمة صف الشهباء . وذهبتُ أنا وإجنوزي مع الفرقة الثانية التي كانت مهمتها دعمَ الشهباء من الخلف .. ووصلنـا إلى طرف المنحدر . فرأينا جيشَ توالا يقترب وهو يراقبُ تحركـات الشهباء ، ثم يتقدمون فرقةً تلو فرقة ليسبقوا الشهباء في الوصول إلى السهل . وتمركز فرسان الشهباء عند لسان الأرض الأخضر . واتخذنا نحن مواقعنا على بُعد مائة ياردة خلفهم على أرض مرتفعة قليلاً . وبدأ جيش توالا يتوافد إلى الوادي . وهناك اكتشفوا أنّ المكان ضيّق لا يتسع إلا لفرقـــةٍ واحدة ، ورأوا أمامهم فرسان الشهباء ، مفخرة جيش الكوكوانا ، فتوقفوا عن الحركة. وظهر أنه لم يكن لديهم حماس في مقاتلة هؤلاء المحاربين الأشداء. وما هي إلا لحظات حتى كان أفرادُ الفرقة الأولى للأعداء يشنون هجوماً ، وهم يصرخون ، ضد فرسان الشهباء .. ووقف الجنودُ

الشهباء صامتين دون حركة حتى أصبح المهاجمون على ُبعد أربعين ياردة . ثم فجأةً ، انقضّوا برماحهم المرفوعة على أعدائهم وهم يزأرون . والتقى الجمعان . وبدأتِ المعركة تدور رحاها وسط أصواتِ الدروع والتروس التي دوّت كالرعد في آذاننا. وما هي إلا لحظات قليلة حتى كانت أشلاء جثث الأعداء تمـــلأ أرض المكان ، وقد تمكّنت فرقةُ الشهباء من إبادتهم عن بكرة أبيهم . أما خسائرُ جنودنا فقد بلغت صفـــاً واحداً من مجموع ثلاثة صفوف للشهباء .

بعد ذلك أخذ جنودنا يتجمّعون استعداداً للمعركة الثانية. وأسعدني رؤية السير هنري وهو يقوم بتنظيم الصفوف وجمع الرجال . إنه ما زال حياً !

ومرةً أخرى دوّى صوتُ التقاء الدروع بالدروع كالرعد القاصف .. وطال وقتُ المعركة هذه أكثر من سابقتها . وفيما اعتقدنا أنّ فرساننا قد ُهزموا ، وكنا على وشك التدخل لأخذ مواقعهم ، سمعنا صوتَ السير هنري يُدوّي ، وهو يحمل فأسَ

المعركة ويلوّح به فوق رأسه . لقد تغيّر سير المعركة . وتوقف فرسانُنا عن التراجع، ووقفوا ثابتين في المعركة كصخرة تتحطّم عليها أمواجُ رماح المحاربين الأعداء.ثم بدأوا بالهجوم المعاكس فولّى أعداؤنا الأدبار في مجموعات صغيرة .. وكان عددُ الذين بقوا على قيد الحياة من فرساننا أقلّ من الربع ، ومع ذلك كانوا يصرخون ويلوّحون برماحهم علامة الانتصار .

ثم بدلاً من أن يعودَ رجالُنا إلينا كما توقعنا ، فقد طاردوا فلولَ المجموعات الهاربة من الأعداء لمسافة مائة ياردة ، وشكلوا حولهم طوقاً من ثلاث حلقات ، وقد رأيتُ معهم ، وحمداً لله على ذلك ، السير هنري وصديقنا إنفادوس .. فسارعتْ فِرَقُ توالا بالتألّب عليهم ، واحتدمتِ المعركة من جديد .

وهنا صرختُ متسائلاً : « أوَنبقى واقفين هنا حتى يُقضى على جذو إجنوزي ، ويبتلع توالا أشقاءنا هناك ؟ » .

وصاح إجنوزي : « لقد حانتِ الساعة » .

ثم رفع فأس المعركة مُشيراً إلى التقدم ، فبدأنا الهجوم

باندفاعٍ يُشبه اندفاع البحر .

وما حدث بعد ذلك يخرج عن طاقتي في التحدّث عنه.كان هناك تلاحمٌ مريع ، زئيرٌ من الأصوات ، ووميض رماحٍ كان يُشاهد وسطَ ضبابٍ أحمر من الدماء .

أما عن سير المعركة، فمن يقدرُ على وصفها ؟ لقد كانوا يُهاجموننا المرةَ تلو الأخرى، وكنا نردّهم على أعقابهم في كل مرة . وفي كل لحظة كانت دائرُتنا تصغرُ وتضيق . وكان المشهدُ الجميل هو رؤية ذلك الجندي العجوز ، إنفادوس ، وهو محتفظٌ بهدوئه كالعادة ، يُصدر أوامره ، وهو يبتسم من وقتٍ لآخر ليحتفظَ بالروح المعنوية العالية لما تبقّى من رجاله ، ثم يُشارك في القتال عندما يشتدُّ أوارُ المعركة .

والأجمل من ذلك المشهد ، كان مشهدُ السير هنري الذي كان شعرُه الأصفر الطويل يميل حيث الرياح تميل . لا أحدَ كان ينجو من ضربته . وكان يصيح وهو يضرب : « أو ، هُويْ ! أو ، هُويْ ! » وكانت ضربته تخترق الدرع والرمح والرأس،

حتى أنه أخيراً ، لم يعد أحدٌ منهم يجرؤ على الاقتراب من الساحر الأبيض الذي يَقتلُ ولا يخيب .

وفجأةً ظهر توالا ، الملك الضخم وصاحب العين الواحدة، وصرخ قائلاً : « أين الرجل الأبيض الذي قتلَ ولدي ؟ فلنرَ إن كنتَ تستطيع قتلي ! » .

ثم صوّب رمحاً ألقاه على السير هنري الذي تلقّفه بدرعه. ثم قفز توالا ، وهو يصرخ ، وضرب السير هنري ضربةً على درعه جعلته يهوي على ركبتيه . ثم توارى عن الأنظار .

وبعد خمس دقائق ، تقرّر مصير المعركة .. فقد أركن جنود توالا إلى الفرار، وأخذوا يقفزون كالكلاب على جوانبهم. وكانت الساحة من حولنا تمتلىء بأكوام الجثث والمحتضرين .. وبقيَ من الشبهاء الشجعان خمسة وتسعون رجلاً واقفين على أقدامهم . وسقط منهم أكثر من ثلاثة آلاف وأربعماية رجل .

وتقدّمنا نحو لو .. وقبل وصولنا إلى أقرب بوابة عند لو، وجدنا فرقةً من رجالنا يُراقبون . وحيّا الضابط الآمر لهؤلاء

الرجال إجنوزي كملك ، وأخبره بأنّ جيشَ توالا كان داخلَ المدينة ، وبأنّ توالا نفسه كان هناك أيضاً . ثم قال بأنّ هـــذا الجيش قد هُزِم تماماً ، وهناك احتمال في استسلام أفراده .

فبعث إجنوزي رجلاً إلى البوابـة ، ليأمرَ المدافعـين عنها بفتحها ، واعداً بشرفـه الملكي الحياة والصفح لكلّ رجلٍ يُلقي سلاحه .

وسريعاً بعد ذلك، ووسط صرخات رجالنا فُتحت البوابة ودخلنا المدينة . وعلى طول الطريـــق وقف جنودٌ برؤوسٍ مُنخفضة، ودروعهم ورماحهم عندأقدامهم، وحين مرّ إجنوزي حيّوه كملك .

وتقدّمنا مباشرةً نحو كوخ توالا ، فوجدنا المكان مهجوراً .. لا ، ليس مهجوراً تماماً ، فعـــلى الجانب البعيـد وأمام الكوخ كان توالا يجلس ومعه جاجول . لقد كان مشهداً حزيناً عندما رأيناه جالساً وفأسه ودرعه إلى جانبه، وهو مخفوض الرأس ، ليس برفقته أحدٌ سوى امرأةٍ عجوز . لا جندياً مـن

جنـوده ، ولا حتى زوجه ، بقيَ معه ليشاركه المصير ، أو الأحزان .

وتقدّمنا نحوه ، وكانت جاجول تصبّ لعناتها علينا ونحن نتقدّم . وأخيراً ، رفع توالا رأسه ، ونظر إلى إجنوزي وقال بغضب : « تحيـةً ، أيها الملك . أيّ مصيرٍ قد أعددت لي ، أيها الملك ؟ » .

ــ « المصيرَ الذي أعددتَـه لوالدي » ، كان جواب إجنوزي .

ــ حسنٌ . لكني أطلبُ حق المنزلة الملكية .. أن أموت مُحارباً .

ــ منحناك هذا الحق . فاختر .. مع مَنْ ستتقاتل ؟ معي، لا أستطيع الاقتتال معك ، لأنّ الملك يُقاتل في الحرب فقط .

وجالتْ عينُ توالا بيننـا ، واعتقدتُ للحظةٍ ما أنها قـد استقرّت عليّ أنا . فماذا إذا اختارني لمقاتلتــه ؟ وما هي فرصة

نجاحي في مقاتـلة هذا الرجل الضخم الذي يبلغ طوله ستة أقدام وخمس بوصات ؟.. وبسرعةٍ قرّرتُ أن أرفض ، حتى لو سخر مني كل الرجال .

ثم تكلم توالا ، مُلتفتاً نحو السير هنري : « ماذا تقـــول أنت ؟ أو َنُنهي ما بدأناه اليوم ؟ أم أنك خائف ؟ » .

ـــ « لا » ، قال إجنوزي بسرعة، « إنك لن تتقاتل معه ».

ـــ « لن أقاتله إن كان خائفاً » ، قال توالا .

ولسوء الحظ فَهِمَ السـير هنري معنى هذه الكلمات ، واحمرّتْ وجنتاه من دماء الغضب فقـال : « سأقاتله . ولسوف يرى إنْ كنتُ خائفاً » ،

ورجوتُه قائلاً : « بحقّ السماء ، لا تُخاطِر بحياتك من أجل رجلٍ قرّر أن يموت » .

ـــ « سأُقاتله » ، كان الجواب الهادىء ، « لا رَجُلَ على قيد الحياة يُمكن له أن ينعتني بـ « خائف ». إنني جاهزٌ الآن » .

وخطا إلى الأمام وحملَ فأسه .. وضحك توالا ، ثم تقدّم ووقف وجهاً لوجه أمام السير هنري .. ووقفا هكذا للحظةٍ ما، ونورُ الشمس الغائبة تُسربلهما بحرارتها .. ثم بدأ كلٌّ منهما يدور حول الآخر ، وفأسي معركتهما مرفوعتان .

وفجأةً قفز السير هنري إلى الأمام ، ووجّه ضربةً رهيبة إلى توالا الذي تفاداها بالتنحّي عن المكان . وكانتِ الضربةُ قويةً بشكل أفقدَ الضاربَ توازنه ، فهوى إلى الأمام بعدها . وأسرع توالا في انتهاز فرصته مُلوّحاً بفأسه حول رأسه ، ثم هوى به إلى الأسفل بقوةٍ هائلة جعلتْ قلبي يقفز إلى داخل فمي ، مُعتقداً أنّ المعركةَ قدِ انتهت . ولكن ، لا ، لم يحدث هذا ، فقد وضع السير هنري ، وبحركة سريعة، درعه حائلاً بينه وبين الضربة .. وكان من نتيجة ذلك أن تحطّم طرفُ الدرع ، ونفذتِ الضربة إلى كتفه الأيسر ، ولكنها لم تكن عنيفة بالقدر الكافي بحيث تُسبّب له جرحاً بليغاً .. وردّ السير هنري على هذه الضربة بضربةٍ أُخرى مماثلة صدّها توالا بدرعه .

وهكذا ، توالت الضربات المتبادلة من الطرفين . وتحوّل الهياج إلى عنف . وكان المشاهدون يصرخون عند كل ضربة .

أما جود ، فقد كان مستلقياً قربي على الأرض في حالة من الاغماء بعد إصابته بجرحٍ في ساقه أثناء المعركة.. ولكنه استعاد وعيه ، ونهض مُتحاملاً على نفسه ليرى ما كان يجري ، ثم أمسك بذراعي وأخذ يقفزُ على ساقٍ واحدة ، وهو يسحبُني معه ، وبدأ يصيح : « هيا اندفع ، أيها الرفيق . هذه ضربةٌ موفّقة ! اضربه بشدّة ! » .

وهنا أمسك السير هنري بترسه وهوى عليه بضربةٍ عنيفةٍ جداً اخترقت درعَ توالا وجرحته بكتفه . وبصرخةِ ألم أعادَ توالا الضربة لخصمه ، وبقوةٍ حطّمت مقبضَ فأس السير هنري وجرحته في الوجه .

وانطلقتْ صرخةُ يأسٍ وجزعٍ من المشاهدين وهم يرون رأس فأس السير هنري يسقطُ على الأرض .

ورفع توالا فأسه مرةً أخرى وانقضّ عليه وهو يصرخ .

وهنا أغلقتُ عيني وعندما فتحتُ عينيَّ وجدتُ درعَ السير هنري مُلقى على الأرض ، وهو ممسكٌ خصرَ توالا بذراعيه القويّتين .. وأخذا يتأرجحان هنا وهناك ، وكلٌّ منهما يستخدم أقصى طاقةٍ لديه للمحافظة على الحياة الغالية والشرف الأعز .
وأمسك توالا بقدم السير هنري وأخذ يشدُّه منها ، فسقطا معاً وهما يتدحرجان ويتدحرجان على الأرض . توالا يضربُ رأس السير هنري بفأسه ، والسير هنري يحاول بسكّينه تمزيقَ درع توالا .

وصاح جود : « خذ فأسه » .

وربما سمع السير هنري هذا ، فأسقط السكّين من يده وسعى إلى الفأس التي كانت مُثبّتة على ذراع توالا بقطعةٍ من الجلد . وأخذا يتصارعان من أجل الفأس كالقططِ البرّية ، وهما ما يزالان يتدحرجان على الأرض. وفجأةً انقطع رباطُ الجلد ، فأصبح السلاحُ في يده . ثم وقف على قدميه والدماء تنزفُ بغزارةٍ من الجرح الذي في وجهه ، وهكذا كان حالُ توالا .

وهنا سحب توالا مديته الثقيلة واندفع بهـــا نحو السير هنري وضربه على صدره. ولكنّ الدرع الواقية حالت بينه وبين الطعنة. عندئذٍ ، أخذ الســـير هنري يُلوّح بالفأس الكبير من حول رأسه ، وضرب به خصمه بكل ما أوتيَ من قوة .

وانطلقتْ هتافاتٌ هائجة من حناجر آلاف الحاضرين .. لقد بدا لنـا رأسُ توالا وهو يقفزُ من بين كتفيه .. أما السـير هنري فقد سقط إلى جانب الملك القتيل مُنهكاً من التعب ومما فقدَ من دماء .

المقبرة

بعد انتهاء المعركة ، نُقل السير هنري وجود إلى خيمة الملك توالا . وتمّ شفاء السير هنري بسرعة من جرحه ؛ غير أنّ جود كان غير محظوظ في الشفاء . فلقد أصبح مريضاً جداً ، ولولا اعتناء فولاتا بتمريضه والسهر على راحته ، لكان قضى . لقد بذلتْ فولاتا مجهوداً كبيراً في معالجته وقضاء الليل إلى جانبه، ومع ذلك فقد كنا نعتقدُ ليومين مرّا أنه لا محالة صائرٌ إلى الموت .. ووحدها فولاتا كانت لا تعتقد ذلك .

وعندما تماثلَ للشفاء أخبره السير هنري بكل ما فعلته فولاتا وهنا قال جود : « إنني مدينٌ لها بحياتي .. إنني لن أنسى لها عطفها ما حييت » .

وأجابته فولاتا بصوتٍ ناعمٍ رقيق: « لا ، يا سيدي ،

إنّ سيدي ينسى . ألَمْ يُنقذ سيدي حياتي ؟ ألستُ مملوكةَ سيدي ؟ » .

وبعد أنِ استعاد جود قوّته تماماً ، أقام إجنوزي احتفالاً كبيراً كرّم فيه جنودَ الشهباء الذين خاضوا المعارك ببسالة ، وقدّم لكلٍّ واحدٍ منهم هديةً من الماشية ، وعيّنهم ضبّاطاً على الفرقة الجديدة للشهباء .

وفيما بعد ، قام إجنوزي بزيارةٍ قصيرة لنا ، وهو يحمل الماسة الملكية على جبهته .. وعندما حيّيناه تحية الملوك ، قال إنّ هذا ما كان ليحدث لولا هذه السواعد الثلاثة التي وقفت إلى جانبه .

وحين سألناه عما قرّر بشأن جاجول ، أجاب بأنه عزم على قَتلها هي وكلّ رفيقاتِها من الصيادات الساحرات .

— « ومع أنها على علمٍ بالكثير من الأشياء » ، أجبته ، « فإنّ إبادةَ هذه المعرفة أسهل من جمعها والاحتفاظ بها » .

فقال لي : « حقاً ما تقول ، فهي على جانبٍ كبير من الدراية والعلم بأسرار هؤلاء الأشخاص الصامتين الموجودين هناك على الطريق الكبير . فهناك في عمق الجبال توجد مقبرة الملوك .. وهناك أيضاً فتحةٌ عميقة كان الرجال الذين ماتوا منذ أمدٍ بعيد يحصلون منها على الحجارة الثمينة .. كما أنّ في المقبرة توجد غرفة سرّية لا يعرفها أحد سوى جاجول.. وهناك قصة تقول بأنّ رجلاً أبيض قد عبر الجبال منذ مئات السنين ووصل بمساعدة امرأة إلى الغرفة السرية هذه ورأى ما فيها من الثروة المخبّأة.. ولكنه ، وقبل أن يأخذ شيئاً من هذه الثروة ، أبلغتِ المرأةُ الملكَ عنه ، فقُبض عليه وأعيد إلى الجبال » .

ــ « إنّ القصة حقيقية ، يا إجنوزي ، لأننا وجدنا على الجبال هذا الرجل الأبيض » ، قلتُ له .

ــ « نعم ، وجدناه » ، أجاب إجنوزي ، « والآن ، إنِ استطعتم بلوغ تلك الغرفة السرية ، وكانت الحجارة موجودة هناك ، يُمكنكم أن تأخذوا منها ما تشاؤون ، إن كنتم حقاً

ترغبون في هجري ، يا أشقائي » .

ــ « أولاً ، يجب أن نجد الغرفة السرية » ، قلت .

ــ « هناك شخصٌ واحدٌ فقط يستطيع إرشادكم إليها .. جاجول » ، أجاب إجنوزي .

ــ « وإن لم تفعل » ، سألتُ .

ــ « عندئذٍ ستواجه الموت » ، أجاب إجنوزي ، « لقد أبقيتُ على حياتها من أجل هذا فقط.فابقوا هنا لنرى فيما تختار».

وأمر رجلاً بإحضار جاجول إليه ..

وفي لحظاتٍ قليلة حضرتْ جاجول مدفوعةً من قِبَل حارسَين كانت تلعنهما أثناء مشيها .

ــ « أتركاها » ، قال الملك . فخارت على الأرض .

ــ « ماذا تريد مني ، يا إجنوزي » ، قالت ، « إذا لمستني ، فإنني سأقتلك بسحري » .

ــ « إنّ سحرَك لم يستطع إنقاذ توالا ، وهو بالتالي لن يستطيع إيذائي » ، كان الجواب ، « إسمعي . أريدك أن تُخبريني عن مكان الغرفة السرية التي تُخبّأ بها الحجارة اللامعة » .

ــ « ها ! ها ! » ، صرختْ ، « لا أحدَ يعرفُ سرّها سواي ، ولن أخبرك أبداً » .

ــ إن لم تُخبريني ، فسوف تموتين » .

ــ لن أريَك إياها . إنك لن تجرؤ على قتلي . لن تجرؤ .

وعندما وخزها إجنوزي برمحه ، صاحت قائلة : « سأريها لك . فدعني أعيش وأجلس تحت الشمس، وأنا سأدلّك عليها ».

ــ إذن ، غداً سترافقين إنفادوس ، وإخوتي البيض ، واحذري خداعنا ، وإلا كان مصيرك الموت البطيء .

ــ لن أخدعكم يا إجنوزي ، فأنا دائماً أفي بوعدي .

وكان الفريق يتألف منا نحن الثلاثة ، وفولاتا التي كانت

تقوم بخدمتنا وخدمة جود بشكل خاص، وإنفادوس، وجاجول محمولة من قبل بعض الرجال .

وبعد مسيرةٍ شاقة وعسيرة ، وصلنا إلى المكان الذي يوجد فيه «الصامتون» ، وفي وسطهم امرأة تآكل وجهها بفعل التأثيرات الجوية .. أما الشخص الذي كان إلى يمينها فقد كان يحمل وجهَ شيطان. والوجه إلى اليسار بدا وجها هادئاً هدوءً قاسياً ومخيفاً .

وصعد الرجال الذين يحملون جاجول، وعندما اقتربوا منا أنزلوا جاجول إلى الأرض . ووضعتْ فولاتا بعضَ اللحم المجفّف وقدرَين من الماء في سلة لكي نأخذها معنا .. وأمامنا مباشرةً انتصب حائطٌ من الصخر يبلغُ طوله ثمانين قدماً أو أكثر . وكانت جاجول تحمل مصباحاً في يدها . وحدقتنا بنظرة شرّيرة ، ثم استندت على عصا ، وانطلقت نحو الحائط . وتبعناها حتى وصلنا إلا بابٍ ضيّقٍ مُقوّس .. وعند الباب سألتنا جاجول قائلة : « والآن ، يا رجال النجوم البيض ، هل أنتم جاهزون ؟ إنني هنا لأُطيعَ أوامر مولاي الملك ، وأدلّكم

على مخزن الحجارة البرّاقة » .

وأجبتها : « نعم ، نحن جاهزون » .

ــ عظيم ! عظيم ! قوّوا قلوبكم لتتحمّل ما سترون . هل أنت قادمٌ أيضاً يا إنفادوس ؟

ــ « كلا » ، أجاب إنفادوس ، « لا شأن لي بالدخول إلى هناك . ولكن احذري من الإساءة إلى أسيادي .. إذا أصيبتْ شعرةٌ منهم بأذى ، فهذا يعني موتك يا جاجول . هل تسمعين ؟

ــ إنني أسمع . إنني هنا كي أطيع أوامرَ الملك ، ولَكَمْ أطعتُ أوامر العديد من الملوك ، حتى أنهم أطاعوا أوامري في النهاية .

وبعد اجتياز معابر ومسالك ضيّقة . وصلنا إلى مكان من أعجب وأغرب ما يمكن أن يشاهده إنسان .. لقد وجدنا أنفسنا في مغارةٍ كبيرة .. ولم يكن لدينا الوقت الكافي لتفحّص هذه المغارة الجميلة المليئة بأبراج الثلوج المتجمّدة على مرّ الزمن .

فلقد كانت جاجول تريدُ إنجاز عملها بسرعة . ووصلتْ بنـا إلى نهاية المغارة الصامتـة ، حيث وجدنا باب طريق آخر لم يكـن مُقوّساً كالباب الأول ، بل مُربّعاً عند القمة .

وهنا سألتْ جاجول : « هل أنتم مستعدون لدخول المقبرة أيها البيض ؟ » .

فأجاب جود : « أُدخلي بنـا » . وهو يحاول عـدمَ الظهور بمظهر الخائف ، كما فعلنا جميعنا ، باستثناء فولاتا التي أمسكت بذراع جود طلباً للحماية .

ومضت بنـا جاجول إلى الداخل ، وكنتُ أسمـع صوتَ عصاها تدبُّ على الأرض : تَبْ ، تَبْ .

وشعرتُ بإحساسٍ غريبٍ من الخوف وأنا أرى جاجول تقودنا وهي تضحك في سرّها ، فتوقفتُ عن السـير ، فقال لي جود : « هيّا ، أيها الرفيق ، وإلا فقدنا مرشدتنا الحسناء ! » .

وبدأتُ السّير ، وما أن خطوتُ حوالى عشرين خطوة حتى

وجدتُ نفسي داخلَ غرفةٍ يبلغ طولها حوالى أربعين قــــدماً وعرضها حوالى ثلاثين قدماً ، وقـد قُدّت حجارتُها من الصخر في الجبل .. وكل ما استطعتُ رؤيته في بادىء الأمر ، حيث كان النور ضعيفاً على عكس نور المغارة ، طاولة من الأحجار تمتـد على طول الغرفة ، وعليها طيفُ إنسانٍ أبيضَ ضخم، كما أجلس حولها عددٌ من أطيافٍ إنسانية بيضاء .

وعندما اعتادت عيناي على النور ، ظهرتْ لي حقيقةُ هذه الأشياء ، وخرجتُ من المكان هارباً على قَدْرِ ما استطاعت ساقاي أن تحملاني .. لقد كان منظراً مرعباً .. ولولا أن أمسك بي السير هنري لكنتُ خارجَ المغارة في أقـلّ من خمس دقائق ، ولن يُغريني كل الماس العالم في العودة إليها .

الجميع كان خائفاً ماعدا جاجول التي كانت تضحك وتضحك ساخرةً منا .

أجل ، فلقد كان المشهد مرعباً حقاً .. فعند طرف الطاولة

كان الموت يجلس بنفسه وهو يحمل في أصابعه العظمية رمحاً أبيض كبيراً . كان هذا الطيف على هيئة جثة إنسان ضخم، أوبالأحرى عبارةً عن عظامٍ مجرّدة طولها خمسة عشر قدماً أو أكثر.. يحمل فوقَ رأسه رمحاً يوشك أن يَضربَ به .. ورأسه مُنحنياً إلى الأمام .. وقد بدتْ تجاويفُ العين فيه مُركّزةً علينا كما لو أنه سيتكلم .

ــ « يا للسموات العظام ! » ، قلتُ أخيراً وأنا أكاد يُغمى عليّ ، « ما هذا ؟ » .

ــ « وما هذه الأشياء ؟ » ، سأل جود وهو يُشير إلى المجموعة البيضاء المتحلّقة حول الطاولة .

ــ « إنّ اللعنة تحلّ على كل من يدخل قاعة الموتى هذه » ، قالت جاجول وهي تبتسم ساخرة ، « تعالوا ، أنتم يا شجعان المعارك ، تعالوا وانظروا إلى الرجل الذي قتلتموه » .

وأمسكتْ بأصابعها العجاف معطفَ السير هنري ، وقادته

نحو الطاولة .. وتبعناهما . ثم توقفتْ وأشارت نحو جسمٍ أسمر أُجلس على الطاولة .

ونظر السير هنري ، وأطلق صرخةً من المفاجأة.. فقد كانت هناك جثة الملك توالا ، آخر ملك للكوكوانا ، وقد أُجلستْ عاريةً تماماً على الطاولة ، والرأس على الركبتين ، الرأس الذي فصله السير هنري عن جسده أثناء المعركة .. وفوق الجسد كان هناك غطاء جمع من الزجاج الرقيق بحيث جعله يبدو مريعاً أكثر .

وقد علمنا فيما بعد أنّ الغاية من هذا الغطاء هو تحويل جثة توالا إلى قطعة حجرٍ بفعل المياه الساقطة عليه من السقف نقطة نقطة .

وقد تأكد لنا صحة هذه الفكرة عندما رأينا الجثث البشرية . أو بالأحرى ما كانت بشرية ، وقد تحوّلت إلى حجارة بواسطة هذه العملية .

وبهذه الطريقة حفظ شعب الكوكوانا موتاهم من الأسرة المالكة منذ العصور الغابرة .

أما كيف يتمّ ذلك، فهذا ما لم أكتشفه . هل بمجرّد وضعهم لعددٍ من السنين تحت نقط المياه الساقطة ؟ أم أنّ شيئاً آخر كانوا يفعلونه ؟ ومع ذلك ، فقد جلسوا هناك مجمّدين ومحفوظين للأبد .

كنز سليمان

وفيما كنا نستعيدُ رباطةَ جأشنا ونتأمل عجائبَ مكان الدفن هذا ، كانت جاجول مُنشغلة بشيءٍ آخر مختلف . فقد صعدتْ إلى الطاولة وشقّت طريقها إلى حيث كان صديقنا توالا موضوعاً تحت نقاط المياه . وأوحتْ إلينا أنها كانت تريد رؤية عملية « طبخ » توالا ، أو أنها كانت تُعد شرّاً للإيقاع بنا . وبدأتْ تُتمتم بكلماتٍ لم أستطع فهمَها ، ولكنها كانت تظهر وهي قرب هذه الجثث وكأنها تحيّي صديقاً قديماً ، عنيتُ به توالا ، ثم تتدفّق بسيلٍ من الصلوات .

ــ « والآن ، يا جاجول ، اذهبي بنا إلى غرفة الكنز » ، قلتُ لها بصوت مُنخفض .

فنزلتْ من على الطاولة وقالت : « سادتي غير خائفين » ،

وأخذتْ تنظر إلى وجهي .

ــ « إمضي بنا » ، أجبتها .

ــ حسنٌ يا أسيادي .

واتجهتْ إلى مكان خلف المدفن وقالت : « هنــا توجد الغرفة ، أشعلوا المصباح وادخلوا » .

وأخذتُ عوداً من الكبريت وأضأتُ بــه المصباح .. ونظرتُ إلى طريق الباب فــلم أجد أمامي سوى جدارٍ من الصخر .

وضحكت جاجول وقالت : « الطريق هناك ، يا سادتي» .

ــ « إنني لا أراه » ، أجبتها بغضب .

ــ « أنظر ! » ، وأشارتْ إلى الصخرة .

وعندما فعلتْ هذا ، رأينـا كتلةً من الحجر ترتفع ببـطء عن الأرض ثم تختفي بين صخرة فوقها . وشاهدنا مكانها فُتحة

مُظلمة .. وكان حماسنا شديداً عندما رأينا الطريق المؤدي إلى المكان الذي يوجد فيه كنز سليمان .

هل كانت هناك تلك الثروة التي ستجعل منا أثرى أثرياء العالم قاطبة ؟ هذا ما سنكتشفه سريعاً .

ـــ « ادخلوا ، أيها البيض القادمون من النجوم » ، قالت جاجول وهي تتقدّمنا نحو الباب ، « ولكن ، قبل أن تدخلوا ، استمعوا إلى خادمتكم جاجول العجوز . إنّ الحجارة اللامعة التي سوف ترونها مأخوذة من تلك الحفرة التي يجلس فيها الصامتون ، ولستُ أدري من اختزنها هنا .. لم يدخل إلى هذا المكان منذ وُضعت فيه الحجارة سوى رجل أبيض واحد مع امرأة عرفتْ سرّ هذا الباب .. وجد الرجل هذه الحجارة ، فعبّأ منها ما عبّأ في جلد عنزة صغيرة كانت معهما .. وعندما همّ بالخروج ، التقط حجراً كبيراً وحمله في يده » . وهنا انقطعتْ عن الكلام .

ـــ « حسناً » ، سألتها ، « وماذا حدث لداسلفستر ؟ » .

واندهشت العجوز عند سماعها اسمه وقالت : « كيف عرفتَ اسمَ الرجل الميّت ؟ » ، ثم استطردت تقول دون انتظار الجواب : « ولقد أصيب الرجل بالخوف والرعب لسببٍ ما ، وألقى بجلد العنزة ، وولّى هارباً إلى الخارج وهو يحمل في يده هذا الحجر فقط .. وقد أخذ الملك هذا الحجر ، وهو الحجر الذي نُزع عن جبهة توالا ، والذي يُرصّع الآن جبين إجنوزي » .

— « ومنذ ذلك الحين ألم يدخل المكان إنسان ؟ » ، سألتها وأنا أرمق بنظري إلى داخل الغرفة المظلمة .

— لا أحد ، يا أسيادي . لقد كان كل ملك يفتحها ، ولكنه لا يدخل إليها . فهناك قولٌ بأنّ كل مَنْ يدخلها سوف يموت في غضون دورةٍ قمريّة ، تماماً كما مات الرجل الأبيض في المغارة على الجبل حيث وجدتموه . ها ! ها ! ما أقوله هو الحقيقة .

وتلاقتْ عيونُنا عندما قالت هذا ، وشعرتُ بالبرودة تسري في أنحاء جسمي .. كيف عرفتْ هذه المخلوقه العجوز

كل هذا ؟

ــ ادخلوا ، يا سادتي . فإن كنتُ أصدقُ فيما أقول ، فإنكم ستجدون جلد الماعز مع الحجارة اللامعة مُلقاة على الأرض ، وأنّ الحقيقة في أنّ مَنْ يدخل هذا المكان سوف يلقى مصيره . ستعلمونها أنتم بأنفسكم . ها ! ها ! ها !

واجتازتِ الباب وهي تحمل المصباح في يدها .

ــ « إلعنوها جميعاً » ، قال جود ، « فأنا لن تُخيفني هذه الشيطانة العجوز » .

واجتاز الباب وراءها تتبعه فولاتا التي كانت ترتجف من الخوف .. ولحقنا بهم .

وأخذت جاجول تحدّثنا عن الذين وضعوا الكنز وكيف أنهم فشلوا في إقامة حاجز يمنع اكتشاف سرّ الباب ، وأشارتْ إلى جدارٍ غير تامّ البناء كانوا يعتزمون سدّ الطريق به .

وهنا ، قالت فولاتا ، التي كانت في حالةِ خوفٍ شديد ،

بأنها لن تذهبَ إلى أبعد من ذلك ، وأنها ستنتظرنا هناك .

وهكذا تركناها عند الجدار غير المُنجز ، ووضعنا سلة الطعام قُربها .. وسرنا.. وبعد خمس عشرة ياردة وصلنا إلى بابٍ خشبي عليه طلاء عجيب .. وكان مفتوحاً . وعلى طريق هذا الباب وجدنا حقيبةً من جلد الماعز مملوءةً بالماس . وأخذ السير هنري المصباح من يد جاجول واجتاز البـــاب . ولحقنا به مُتناسين أمرَ الماس لنجدَ أنفسنا داخلَ غرفة كنز سليمان . كانت عبارة عن غرفة مبنية من حجارة الصخور ، ولا تزيـــد مساحتُها على عشرة أقـدام مربّعة . وفي الجهة المقابلة للغرفة كان هناك حوالى اثني عشر صندوقاً خشبياً مطلياً باللون الأحمر .

وهنا قلت : « هناك يوجد الماس . أحضروا المصباح » .

وفعل السير هنري ذلك .. كان الصندوق الخشبي قد أصبح ليّناً على مرّ الزمن ، وقد تعرّض للتحطيم والكسر ، وقـــد يكون داسلفستر هو الذي فعل ذلك بنفسه .

ووضعتُ يدي داخلَ الصندوق لتخرجَ ملآنـــة ، ليس

بالماس ، بل بقطعٍ صغيرة من الذهب الـــتي نقشت عليها بعض الحروف الغريبة .

ــ « حسناً »، قال جود، « إنني لا أرى ألماساً غير الألماس الذي وضعه داسلفستر في تلك الحقيبة » .

وهنا قالت جاجول : « فلينظر أسيادي هناك حيث الظلام الدامس ، إن أرادوا العثور على الماس .. فهناك توجد ثلاثةُ صناديق حجرية ، اثنان مُغلقان وواحد مفتوح » .

فنظرنا ، ولكننا لم نتمكّن من رؤية شيء للوهلة الأولى بسبب الضوء الفضي المشع . وعندما اعتادتْ عيونُنا على هذا الضوء ، وجدنا الصناديق الحجرية الثلاثة التي وقف عندها السير هنري، ووجدنا أنّ الصندوق كان يتألف من أجزاء ملآنة بالماس غير المقطوع ، ومعظمها من الحجم الكبير .

ــ « إننا سنصبح أغنى الرجال في العالم كله » ، قلت .

ووقفنا واجمين ينظر كلٌّ منا للآخر ، المصباح في الوسط

والجواهر البرّاقة أمامنا .

ــ « هي ! هي ! هي ! » ، ضحكتْ جاجول العجوز من خلفنا وقالت : « ها هي الحجارة البرّاقة التي تُحبّون . خذوها بين أصابعكم . التهموها . هي ! هي ! اشربوها . ها ! ها ! » .

كانت هناك ملايين الجنيهات ثمناً لهذه الماسات ، وآلاف من الجنيهات ثمناً لهذا الذهب .. وكلها تنتظر مـــن يأخذها .. وفتحنا الصندوقين الآخرين فوجدنا الأول ملآناً تماماً والثاني مُلىء ربعه بالحجارة المختارة التي كان يُشبه بعضها البيض في كِبَرِه وحجمه .

وما لم نره أثنـــاء انشغالنا في النظر إلى الحجارة هو نظرة الكراهية المخيفة التي كانت جاجول ترمقنا بها وهي تزحف خارج غرفة الكنز باتجاه الباب الكبير للصخرة .

وسمعنا ! صرخة تلو صرخة كانت تُدوّي عبر الكهف . إنه صوتُ فولاتا . كانت تصرخ وتقول : « النجدة ! النجدة ! أنجدوني ! حجر الباب يهبط » .

ـــ أفلِتيني ، أيتها الفتاة ، دعيني أذهب .

ثم : « النجدة ! النجدة ! لقد قتلَتني ! » .

وخرجنا نركض مسرعين . كان باب الصخرة يُغلق ببطء، ولم يعدْ يفصله عن الأرض سوى ثلاثة أقدام ، وبقربه فولاتا وجاجول تتصارعان . كان دمُ فولاتا يسيل على ركبتها ، لكنّ الفتاة الشجاعة كانت ما تزال مُمسكةً بالساحرة العجوز التي كانت تُقاتل كقطّة بريّة .

يا إلهي ! إنها تفلت ! فولاتا تسقط، وجاجول تُلقي بنفسها على الأرض لِتتسلّل زاحفةً من خلال فجوة الحجر الآخذ بالانغلاق . إنها أصبحت تحت الحجر تماماً .. آه ! يا إلهي ! فات الأوان ! سبقَ السيفُ العذل ! الحجر يعصرها . إنها تصرخ بألمٍ مُريع . لقد هبط الحجرُ عليها بكل ثِقَله . صرخةٌ أعقبتْها صرخات لم نسمع مثلها من قبل . وهبط الباب ، ولكنه قبل أن يُغلق اندفعنا بكل قوّتنا لِنحول دون إغلاقه ، وتمكّنا من الدخول إلى فولاتا .. فماذا رأينا ؟ رأينا فولاتا وفي صدرها

سكّين كبيرة ، فأدركتُ أنها لن تعيشَ طويلاً .

هنا حملها جود وهي تئنّ وتقول : « آه ، إنني أموت . إنّ جاجول زحفت إلى الخارج . لم أرها . كان مغمياً عليّ . بدأ الباب يهبط . وعادت جاجول . أمسكتُها ، فضربتني بسكّين ، وها أنا أموت » .

ــ « مسكينةٌ هذه الفتاة ! يا لها من فتاةٍ مسكينة ! » ، صاح جود .

ثم التفتت فولاتا من حولها وقالت له : « هل صديقك هنا ؟ إنني لا أستطيعُ الرؤيا ، فالدنيا تُظلم من حولي » .

وأجبتها قائلاً : « إنني هنا ، يا فولاتا » .

فقالت لي : « كُنْ لساني للحظةٍ من الوقت ، فهو لا يقدر على فهمي ، وقبلَ أن أدخل في فلك الظلام ، أُريد أن أقول كلمة » .

ــ هيا ، قولي ، يا فولاتا .

ـــ قُل لمولاي بأنني أحبه . قُل بأنـني سعيدة بلقاء الموت لأنني أعلم بأنّ حياتـه لن تشارك حياتي في هذا العالم . قُـل بأنني مُذ رأيته وأنا أشعر أحياناً كما لو أنّ طيراً حطّ في قلبي وسيطير يوماً ليحطّ ويُغنّي في مكانٍ آخر..والآن، ورغم أني لاأستطيع رفعَ يدي ، فأنا لا أشعر أنّ قلبي يحتضر ، فهو مفعمٌ بالحب الذي يعيش لآلاف السنين ويظلّ يافعاً في عمر الورود . قُل له بأنني إن عشتُ ثانية ، فسوف أراه في النجوم الـتي سأطفق في البحث عنها كلها. قُل له، لا ، لا تقل له شيئاً أكثر من أني أحبه.

ـــ « ماتت .. لقـد ماتت » ، صرخ جود ، وهو ينهض ، بحزنٍ وأسى ، والدموع تفيضُ من عينيه وتجري على وجه الوفيّ المخلص .

قال السير هنري مُوجّهاً كلامه لجود: « لاتدع هذا يزعجك أيها الصديق » .

ـــ « ماذا ؟ » ، قال جود ، « ماذا تعني ؟ » .

ـــ أعني بأنك سوف تلحق بها سريعاً . أفلا ترى بأنّ

البابَ موصدٌ علينا ، وأنّ هذا المكان هو قبرنا .

ووقفنا فوق جثة فولاتا للحظاتٍ قليلة ، وقد خارتْ كلُّ قوانا . وكانتِ الصدمة الأولى لفكرة النهاية البطيئة المريعة الماثلة أمامنا ، أقوى مما نتحمّل ونطيق . لقد عملتْ جاجول وخططتْ لهذا منذ البداية : فكرةُ أن ترى رجالاً ثلاثة يحتضرون عطشاً وجوعاً برفقة كنزٍ رغبوا فيه . وأدركتُ الآن معنى قولها لنا « أكل » و « شرب » الجواهر .

ــ « يجب أن نفعل شيئاً » ، قال السير هنري، « سينطفىء المصباح عما قريب . دعونا نرى إن كنا نستطيع العثور على المقبض الذي يحرّك الصخرة » .

وبدأنا بالبحث عن هذا المقبض ، ولكننا لم نُوفّق . بعد ذلك قلت : « تأكدوا أنّ المقبض لا يعمل من الداخل ، وإلا لما خاطرت جاجول بالزحف تحت الحجر » .

ــ « لا نستطيع أن نفعلَ شيئاً بالنسبة إلى الباب » ، قال السير هنري ، « فلنعُدْ إلى غرفة الكنز » .

وحملنا جثة فولاتا المسكينة ووضعناها قربَ صناديق الذهب. وعندما كنتُ أمرّ قربَ الجدار غير المنجز، التقطتُ سلة الطعام.. ثم جلسنا وأسندنا ظهورنا على صناديق أحجار الجواهر.

ــ «دعونا نَقسِمُ الطعام»، قال السير هنري، «حتى نجعله يبقى أطولَ مدةٍ ممكنة».

وفعلنا هذا. كان لدينا طعام وشراب يُبقي على حياتنا لمدة يومين.. وشربَ كلٌّ منا قليلاً من الماء.. ولم نشعر بالجوع رغم حاجتنا الكبيرة إلى الطعام. وشعرنا بأننا في حالٍ أفضل بعد تناول الطعام.. ثم نهضنا وبدأنا بفحص الجدران وأرض سجننا، وكان الأمل ضعيفاً في إيجاد مخرجٍ ما.. لم يكن هناك أيّ مخرج لنا.. كما لم يكن هناك احتمال في وجود مدخلٍ ثانٍ لغرفة الكنز.

ــ «كواترمن»، قال السير هنري، «كم الوقت؟».

نظرتُ لأرى. كانت السادسة. ولقد دخلنا المغارة في

الحادية عشرة . وقلت : « سيتفقدُنا إنفادوس . فإن لم نعد هذه الليلة ، فسيقوم في البحث عنا في الصباح » .

— « لكنه لا يعرف سرّ البـاب » ، أجاب السير هنري ، « ولا حتى مكان وجوده . وبافـتراض أنه وجد البـاب فهو غير قادر على كسره . لا ، بل كل جيش الكوكوانا لا يقدر على تحطيم خمسة أقـدام من الصخر .. يا أصدقائي ، إني لا أرى شيئاً في هذا الأمر سوى الرضوخ لمشيئة الله . إنّ البحثَ عن الكنز قد أوصلَ العديدَ إلى نهايةٍ سيّئة ، ونحن سنزيدُ هذا العدد » .

لقد أخذ نور المصباح يخفت. ثم توّهج للحظةٍ ما كاشفاً كل شيء أمامنا : صناديـق الذهب ، جثة فولاتا المسكينة مُمدّدة أمامَ الصناديق ، جلد الماعز الممتلىء بالكنز ، البريق الخافت للألماس ، والوجوه البيضاء المتهيّجة لنـا ، لثلاثة رجال جلسوا هناك ينتظرون الموت .

... وفقدنا الامل

لا أستطيع إعطاء وصفٍ حقيقي للّيلة التي تلتْ.. ولكنّ الله رحمنا عندما استسلمنا للنوم لوقتٍ قصير. لقد كنا مسجونين وسطَ جبلٍ مُكلل بالثلوج، مَفصولين عن كل شيء في العالم.. كنا كَمَنْ مات من قبلنا وطواهم النسيان.. كان مِن حولنا كنوز تكفي لأمّة بكاملها، ومع ذلك كنا على استعدادٍ لأن نهبَها عندما تلوح لنا أضعفُ فرصةٍ للنجاة.. وعما قريب، ودون أدنى شك، سوف يُسعدنا أن نستبدلها بقليلٍ من طعام أو بفنجان ماء!

وكان قد بقيَ لدينا ثمانية عيدان من الكبريت، فأشعلنا واحداً منها لنرى الوقت.. كانت الساعة الخامسة، وكان الفجر الجميل يُرسل أشعّته الوردية الحمراء فوقَ الثلج بعيداً فوق رؤوسنا، والرياحُ تُوقظ ضبابَ الليل في الأجواء الفارغة.

وهنـا قلت : « من الأفضل أن نتنـاولَ بعض الطعام لنحتفظَ بقوّتنا » .

ــ « وما فائدة الأكل ؟ » ، أجاب جود ، « كلما كان الموتُ أسرع .. كلما كان ذلك أفضل » .

ــ « حيث توجد الحياة. يوجد الأمل» ، قال السير هنري.

ثم أكلنا وشربنا ماءً قليـلاً .. ومرّ الوقت . واقتربنـا من الباب وأخـذنا نصرخُ بأعلى أصواتِنا علّ أحداً يسمعنا من الخارج .. فما مِن مُجيب .. فجلسنا مرةً أخرى مُتّكئين على صناديق الماس العديمة النفع .. لم يكن هناك ما نفعله ، ولن نستطيع أن نفعل شيئاً. وأخيراً، استسلمتُ لليأس واضعاً رأسي على كتف السير هنري العريض ، وانفجرتُ باكياً، وأعتقدُ أني سمعتُ جود يبكي ، ثم يلعن نفسه لأنـه يبـكي .. وكم كان شجاعاً وطيّباً ذلـك الرجل ، السير هنري . ولو أننا كنا طفلين مذعورين ، وكان هو حاضنُنا ومربّينا ، لما عاملنا برفـق وحنوّ أكثر . لقد تناسى كل متاعبه ومشاكله ليُدخل السرور إلى قلبَينا

ويروي لنا قصصَ رجـــال اجترحوا المعجزات حتى تمكنوا من الفرار في وقت ضاع فيه كلُّ أملٍ لهم بالنجاة من مأزق وقعوا فيه .

وعندما فشل في انتزاع الخوف وإدخال الأمل إلى نفوسنا قال لنا بأن نسلّم أمرَنا لرحمة القوّة العليّة ونطلبَ الرحمةَ والعونَ من الله .

ومرّ النهارُ مثلما مرّ الليل .. ثقيـــلاً موحشاً .. يعبث بأعصابنا ويزيدُ من حدّة ضعفنا ويأسنا .

وعندما أشعلتُ عوداً من الكبريت كانت الساعة السابعة . ومرةً أخرى أكلنا وشربنا ، وعندما انتهينا من ذلـــك، طرأتْ لي فكرةٌ قلتُ على أثرها : « كيف يكون هذا ، كيف يظلّ الهواء في هذا المكان نقيّاً ؟ » .

ــــ « يا للسماء ! » ، قال جود قافزاً ، « لم أفكّر أبداً بهذا ! إنه لا يأتي إلينا عبر الباب الحجري ، فهو مســـدود ولا يسمح

بذلك . إنه يأتي من مكانٍ آخر . لو لم يكن هنـاك هواء يدخل إلينا ، لما تمكّنا من التنفّس الآن . فلنُلقِ نظرةً ما » .

وعاد إلينا بريقُ الأمل مرةً أخرى ، وأخذنا جميعاً نزحف على أيدينا وأرجلنا نتلمّس أدنى دليل لوجودالمكان الذي يدخل منه الهواء . وواصلنا البحث والتفتيش لساعةٍ أو أكثر قطعتُ الأملَ بعدها أنا والسير هنري . ولكنّ جود تابع بحثه قائـــلاً بشيء من البهجة : أنّ ذاك أفضل من أن لا نفعل شيئاً ..

وبعد وقتٍ قليل ، قال بصوتٍ مرتجف : « تعالا إليّ أيها الصديقان » ، وأسرعنا إليه ، « كواترمن ، ضع يدك هنا حيث يدي . أوَتشعرُ الآن بأيّ شيء ؟ » .

ـــ أعتقدُ بأني أشعر بهواء يدخل .

— والآن اسمع .

ونهض وضربَ المكان بكعب رِجله.. وانبعث لهيبٌ من الأمل في قلوبنا .. لقد أعطى صوتَ فراغ .

وأشعلتُ عوداً من الثقاب . وكان قد بقي منها ثلاثة ، وتفحّصنا المكان لنجد هناك فجوةً في الأرض التي تقف عليها الصخرة . ويا لقدرة السماء ، فقد كان هناك أيضاً حلقة من الحجر موضوعة بشكلٍ متوازٍ مع الصخرة .

كان جود يمتلك مطواة ، فتحها وأخذ يعمل بها حول الحلقة ليفكّها . وبدأت الحلقة تتحرّك .. وسريعاً تمكّن من حلّ الحلقة ، ووضع يديه في داخلها وبكل قوّته ، ولكنّ شيئاً ما لم يتحرّك .. وحاولتُ أنا والسير هنري مثلما حاول ، ولكن حظنا لم يكن أفضل من حظه .

بعد ذلك عمدَ جود إلى الحفر حول الفجوة التي كان الهواء يدخل منها ، ثم مرّر منديلاً حريرياً متيناً كان معه إلى داخل الحلقة ، وقال : « كواترمن ، أمسك أنت والسير هنري وسطَ المنديل واجذبا بقوّة عندما أقول لكما . هيّا ! » .

وشدّ السير هنري بكل ما أُوتي من قوّة عظيمة ، وهكذا فعلتُ أنا وجود .

ــ « إسحبا ! إسحبا ! إنه يلين » ، قال السير هنري .

وكان هناك صوتُ فرقعة ، واندفاع هواء ، وانقلبنا جميعاً على ظهورنا على الأرض .. ووقع حجرٌ ثقيلٌ علينا أزاحه السير هنري بقوةٍ لم تُسعف إنساناً من قبل . ثم قال : « أشعل عوداً من الثقاب ، يا كواترمن » .

وفعلتُ هذا ، وهناك أمامنا ، ولله الحمد ، كانت الدرجة الأولى من سلمٍ حجري .

ــ « والآن ، ماذا سنفعل ؟ » ، سأل جود .

ــ نتبع السلم طبعاً ، ونتّكل على الله .

ــ « قِفا ! » ، قال السير هنري ، « كواترمن ، آتنا باللحم والماء الذي بقيَ لدينا ، فقد نحتاجها » .

وعدتُ زاحفاً إلى مكاننا قرب الصناديق ، وخطرتْ لي فكرة وأنا في الطريق . لقد فكّرتُ بأن أضع قليلاً من الماس في جيبي وذلك على أمل الخروج من هذا المكان المخيف.وهكذا

وضعتُ يدي داخل الصندوق الأول وملأتُ كلَّ جيـــوب معطفي ، وأخيراً وضعتُ فيها قليـلاً من الحجارة الكريمة ذات الحجم الكبير الموجودة في الصندوق الثالث. وقلتُ للصديقين: « ما قولكما بأخذ بعض الماس ؟ لقد ملأتُ جيوبي بها » .

ــ « أوه ، لعنةُ الله على الماس » ، قال السير هنري ، « آمل بأن لا أرى إحداها أبداً » .

أما جود ، فلم يُجب . فقد كان ، وعلى ما أعتقد ، يُلقي نظرةَ الوداع الأخيرة على كل ما بقيَ من الفتاة المسكينة التي أحبّته كثيراً .

وهبطنا السلم . وعند وصولنا إلى الأسفل أشعلنا عوداً من عودَي الثقاب الباقيين .. وبضوئه رأينا معبرَين إلى جهة اليسار وجهة اليمين . وهنا برز السؤال أيّ طريق نسلك . عندئـــذ تذكّر جود أنه عندما أشعلتُ عود الثقاب عصفَ الهواء بلهيب النار لجهة الشمال ، فقال : « فلنمضِ عكس الريـــح . فالهواء يهبّ للداخل وليس للخارج » .

وهكذا اتجهنا لجهة اليمين عكس الريح .. وغادرنا غرفة الكنز الملعونة بحثاً عن النجاة .

ومن ممرّ إلى ممرّ كنا نتلمّس طريق النجاة حتى استبدّ بنا التعب واستولى علينا اليأس مجدّداً . فأكلنا آخرَ قطعة من اللحم وشربنا آخر نقطة من الماء .

ويبدو أننا فَرَرْنا من الموت الجاثم في ظلام غرفة الكنز لنلقاه في ظلام هذه الأنفاق السفلية .

ثم خُيّل لي بأني سمعتُ صوتاً. فأخبرتُ الآخرَين كي يُصغيا . لقد كان صوتاً ضعيفاً ويأتي من مكانٍ بعيد جداً ، ولكنه كان صوتاً على أيّة حال .

ــ « أقسم بالله ! إنها مياه جارية »، قال جود ، « هيا بنا ».

واتجهنا نحو مصدر الصوت ، ونحن نتلمّس طريقنا على طول الجدران الصخرية .. كان الصوت يجلو أكثر كلما اقتربنا .. وهكذا حتى استطعنا سماعَ اندفاع المياه بشكلٍ واضح .

وأصبحنا الآن على مقربة من مكان المياه حتى أنّ جود الذي كان يقودنا قال بأنه يشمُّ رائحة الماء .

— « سِرْ على مهل ، يا جود » ، قال السير هنري ، « فنحن قريبون من المكان » .

وفجأةً سمعنا صراخ جود . لقد سقطَ .

— « جود! جود! »، أخذنا نصيح برعب ، « أين أنت ؟».

وفرحنا عندما جاء الجواب بصوتٍ خافت قائلاً : « أنني مُمسكٌ بصخرة . أشعلا الثقاب لأرى مكانكما » .

وبسرعة أشعلتُ آخرَ عود من الثقاب بقيَ معنا . ورأينا على ضوئه الخافت كتلةً سوداء من مياه جارية عند أقدامنا، وعلى بُعدٍ منا الصورة الباهتة لرفيقنا وهو ممسك بصخرة .

— « إستعدّا لالتقاطي »، صاح جود، « يجب أن أعوم».

وسمعناه وهو يصارع المياه . وما هي إلا لحظة حتى أمسك

بيد السير هنري ، وسحبناه خارجَ المياه .

ولم نجرؤ على السير في محاذاة النهر خشية أن نقع فيه ثانيةً في هذا الظلام . فشربنا ماء ، ثم عدنا من حيث أتينا .

وأخيراً سلكنا ممرّاً بقيادة السير هنري الذي توقف فجأةً وصار يهمس قائلاً : « هل أنا صائرٌ إلى الجنون ؟ أم أنّ هذا ضوء ؟ » .

وأخذنا نحملق النظر ونحن وراءه ، وهناك ، أجل ، هناك في مكانٍ بعيد أمامنا كانت بقعةٌ ينبعث منها ضوءٌ خافت . وبصرخة أمل اندفعنا نحوها . وبعد خمس دقائق ، لم يكن هناك أدنى شك بأنه كان شعاع ضوء .

وما هي إلا لحظة حتى هبّ علينا هواءٌ منعش .. وأخذتِ الطريق تصغر وتصغر . إنها الأرض والتراب .. لقـــد انتهت أرضُ الصخور .

وهكذا ، وبعد صراعٍ عنيف ، خرجنا إلى الحياة حيث

النجوم المباركة فوقنا ، والهواء العذب على وجوهنا .

وفجأةً انخسف شيءٌ ما،وأخذنا جميعا نتدحرج ونتدحرج بين أعشاب وأشواك وتربـــة مبلّلة .. فأمسكتُ بشيء ما ، وتوقفتُ عن التدحرج .

وانطلقتْ صرخةٌ من السير هنري الذي توقـف تدحرجه عند أرض مستوية . ووجدنا جود عالقـــاً بجذع شجرة .. وجلسنا معاً هناك على العشب . وأذكر أننـا بكينا من الفرح . لقد نجونا من تلك الغرفة التي كادت تُصبح قبرَنا. وقد سدّد الله خطانا عبر هذه الممرات السفلية . وها نحن نرى هناك على الجبل الفجرَ الذي كنا قد فقدنا الأملَ برؤيته مرةً أخرى.. وبدأ نور النهار الرمادي يزحف على المنحدرات حيث كنا في أسفلها ، أو تقريباً عند أسفلها عند منجمٍ عميق أمامَ مدخل مغارة .

وأشرقَ نور الصباح واستطاعَ كلٌّ منـــا رؤية الآخر الآن . خدودٌ مجوّفة .. عيونٌ غائرة مُغطّاة بالغبـار والأقذار والدماء ، والخوف لفـترةٍ طويلة من الموت كانت سماتـه ما تزال

مطبوعةً على وجوهنا ، وكان منظرنا يُخيفُ ضوء النهار .

ونهضنا ، وبـدأنا بخطواتٍ بطيئـة ومؤلمة ، نكافح للصعود إلى أعلى. وأخيراً ، نجحنا في الصعود ، ووقفنا على جانب الطريق الكبير. وعلى بعد مئة ياردة من الطريق ، رأينا ناراً تشتعل أمامَ بعض الأكواخ ، وحول النار تحلّق بعضُ الرجال .. وتحركنا باتجاههم يسندُ بعضنا الآخر ، ثم توقفنـا بعد خطوات قليـلة .. ورآنا أحدُ الرجال عندما وقف ، فوقـع على الأرض يبـكي من الخوف . وصحنا بأعلى أصواتنا : « إنفادوس ! إنفادوس ! إننا نحن ، نحن أصدقاؤك » .

فوقف وجرى نحونا قائــــلاً : « يا إلهي ، إنهم أسيادي ، إنهم أسيادي يعودون من عند الموتى ! » .

وأخيرا .. عثرنا عليه

وعدنا إلى أكواخنا في لُو . وأصغى إجنوزي إلى قصتنا العجيبة باهتمامٍ شديد . وعندما أخبرناه عن نهاية جاجول سرح بفكره وقال : « كانت امرأة غريبة . يُسعدني أنها ماتت » .

ـــ « والآن ، يا إجنوزي » ، قلتُ له ، « لقد حان الوقت لنودّعك . لقد جئت معنا كخادم ، وها نحن نتركك ملكاً قويّاً . فاحكُمْ بعدل ، وليُرافقك النجاح . غداً عند الفجر ستُعطينا فرقةً من الرجال الذين سوف يقودوننا عبر الجبال . أليس هذا حقاً أيها الملك ؟ » .

وغطّى إجنوزي وجهه بيديه وأجاب : « إنّ قلبي مُفعمٌ بالأسى . ماذا فعلتُ حتى تتركوني ؟ أنتم يا من وقفتم إلى جانبي في الحرب ، أوَتتركونني في يوم السلام والنصر ؟ » .

ووضعتُ يدي على ذراعه ، وقلتُ له : « إجنـوزي ، عندما كنتَ تتجوّل في أرض الزولو وبين السكان البيض في ناتال ، ألمْ يخفُق قلبُك نحو الأرض التي أخبرتْك أمُّك عنها ، أرضِ قومك ، حيث رأيتَ أولَ نور ، حيث لعبتَ وأنت صغير ، الأرض حيث كان مكانك وبيتك ؟ » .

ــ لقد كان ذلك فعلاً .

ــ ونحن مثلك يا إجنوزي ، تتوجّه قلوبُنا نحو أرضنا ومكاننا .

وتَبِعَ ذلك صمت . وعندما حطّم إجنوزي هذا الصمت ، كان صوتُه مُختلفاً بعض الشيء : « إنّ عمي إنفادوس سـوف يُرافقكم بنفسه . فهناك طريق آخر عـبرَ الجبال سيُريكم إياه . وداعاً ، يا إخوتي . لا تنظروا إليّ أكثر من ذلك ، فليس لي قلبٌ يتحمّل .. ارحلوا الآن حتى لا تنهمر الدموع من عينيّ كما تفعل المرأة . أذكروني دائماً .. أذكروني كلما اجتمعتم . وداعاً إلى الأبد ، يا أسيادي ، ويا أصدقائي » .

ونهض إجنوزي وتفرّس في وجوهنا للحظاتٍ قليلة . ثم ألقى بطرف حلّته فوق رأسه حتى يُخفي وجهه عنا .

وسرنا بصمت .. وفيما نحن نسير ، أخبرنا إنفادوس عن وجود طريق آخر فوق الجبال . ثم أخبرنا أيضاً أنه على مسافة أيامٍ قليلة من السير بعد أن نقطعَ الجبال هناك واحة من الأشجار والأرض الخصبة الغنيّة في وسط الصحراء .

وأخيراً حان الوقت كي نُودّع هذا الصديق المخلص والجندي العجوز البهيّ الطلعة ، إنفادوس . وودّعنا متمنياً لنا كل الخير ، وبكى من الحزن على فراقنا . وأطلق جنوده تحية الوداع بصرخةٍ دوّت كالرعد : « كوم » .

وبدأنا بتسلّقنا السفلي. وعند ظهر اليوم الثالث من الرحلة، وعند أسفل الجبال رأينا الأشجار التي تحدّث عنها إنفادوس . وبعد ساعة من مغيب الشمس كنا نمشي مرةً أخرى على الأعشاب ونستمع إلى صوت المياه الجارية .

وتوقفتُ فجأةً وفركتُ عينيّ لأرى شيئاً غريباً كان من أغرب الأشياء التي تُضاف إلى الغرائب والعجائب التي شاهدناها في رحلة العمل العجيب .. فهناك ، وعلى أقلّ من عشرين ياردة أمامنا، وتحت ظلّ شجرة، كان يوجد كوخٌ صغير جميل..فقلتُ في نفسي : « ماذا يفعل هذا الكوخ هنا ؟ » .

وما أن قلتُ هذا حتى فُتح بابُ الكوخ ، وخرج منه رجلٌ أبيض يلبس الجلود . كان يمشي بثِقَلٍ من الألم وساقه اليمنى مكسورة . كانت له لحية سوداء كبيرة . كدتُ أُجنّ . كان هذا مستحيلاً . لا صياد يمكن أن يأتيَ إلى هذا المكان، ولا يمكن لصياد أن يستقرّ في العيش هنا .

ووقفتُ أُحملق النظر في الرجل ، ووقف هو يُبادلني النظرات .

في هذه اللحظة وصل السير هنري وجود ، فقلتُ لهما : « أنظرا . فهل هذا رجلٌ أبيض ، أم أنني مجنون ؟ » .

فنظر السير هنري ، ونظر جود . وزاد في دهشتنا أنه

أطلق صرخةً قويّة واتجه نحونا . وعندما أصبح قريباً منا، سقط على الأرض في نوعٍ من الاغماء . وقفز السير هنري إليه ، ثم صاح : « يا لَعظَمة السماء . إنه أخي جورج ! » .

وعند سماعه هذا الصوت، خرج رجلٌ آخر يرتدي الجلود أيضاً من الكوخ ، وهو يحملُ في يده بندقية ، وجرى نحونا . وعندما رآني ، أطلقَ هذا الآخر صيحةً وقال : « ألا تعرفني ، يا سيدي ؟ إنني جيم الصياد . لقد فقدتُ الرسالة التي طلبتَ مني إعطاءها لسيدي . وقد مضى على وجودنا هنا حوالى عامين » .

وخرّ على قدميّ وهو يبكي من الفرح . في هذه الأثناء استعاد صاحبُ اللحية السوداء وعيَه ونهضَ على قدميه. وتصافح هو والسير هنري لفترةٍ من الوقت دون أن ينبسا بكلمة .. إنّ كل ما تشاجرا من أجله في الماضي ، وقد تكون امرأة ، قد أصبح في طيّ النسيان الآن .

ـــ « يا عزيزي » ، قال السير هنري أخيراً ، « لقد ظننتُ

أنك مُتَّ . لقد كنتُ فوق جبال سليمان ساعياً للبحث عنك » .

ـــ « لقد حاولتُ الصعود إلى جبال سليمان منذ سنتين » ، كان الجواب في صوتٍ غريب اللهجة .. صوتُ رجـــل قلّتِ الفرصُ أمامه لاستخدام لسانه ، « ولكنّ صخرةً سقطتْ على ساقي وكسرتها ، ولم أكن قادراً على التقدُّم أو العودة » .

وفي هذا المساء أخبرنا جورج كيرتس قصته، وكل ما جرى معه حتى الساعة .

وبعد ستة شهور كنتُ أعيش بأمان في منزلي الصغير قرب دوربان حيث أكتب الآن هذه المذكرات . وعندما كتبتُ هذه الكلمة الأخيرة ، جاءني ساعي البريد وهو يحمل رسالةً لي. إنها كانت من السير هنري ، وقرأتُها كاملة :

« عزيزي كواترمن ، أرسلتُ لك رسالةً منـــذ أسابيع قليلة لأُخبرك بأنني أنا وجورج وجود وصلنا انكلترا بخير .. لقد ذهبنا إلى لندن معاً . وكم أتمنى لو أنك رأيتَ جود في اليوم

الثاني لوصولنا ، وهو يرتدي لباسه الجديد ، ويضع نظّارتــه الجديدة الجميلة . لقد ذهبتُ وإيّاه نتمشى في المنتزه . وقابلتُ بعضَ مَنْ أعرفهم من الناس ، وأطلعتُهم على قصة « الساقين الجميلتين لجود » . إنه غاضب لهذا ، كما لو أنّ شخصاً ما قد نشر هذا الخبر في الجريدة .. ولنأتِ الآن إلى حديث المال ، فقد أخذتُ أنا وجود الماس إلى محلات ستريتر ليقولَ لنا عن قيمتها الحقيقية . وأخشى أن أقولَ لك القيمة التي قدّروها. إنها باهظة . لقد نصحونا بأن نبيع القليلَ منها الآن ، وسنحصل على سعرٍ أفضل بهذه الطريقة . لقد عرضوا علينا مبلغَ مئة وثمانين ألف جنيه لجزء صغير من هذه الحجارة الكريمة.. أريدك أن تحضر، وأن تشتري بيتاً هنا . لقد أتممتَ واجبك في العمل اليومي ، ولديك الآن كثير من المال . يوجد منزل قريب تستطيع شراءه ويناسب فخامتكم . أحضر ، وكلما أسرعت كان ذلك أفضل . وإذا حضرت الآن عند تسلّمك الرسالة ، ستكون في وطنك في عيد الميلاد ، ويجب أن تعدَني في البقاء معي من أجل ذلك.. وإلى اللقاء ، أيها الفتى ، فليس لديّ ما أزيد عليه ، وأعلم أنّ

حضورك سيكون مدعاة لسرورنا .

صديقك هنري كيرتس

إنّ الفأسَ التي قطعتُ بها رأس توالا مُثبّتةٌ فوق طاولة الكتابة . وكنتُ أتمنى لو أحضرنا معاطفَ الدروع الحربية .

ه. ك. »

اليوم الثلاثاء . وهناك سفينة ستُغادر يوم الجمعة . وأفكّر جدّياً بأن أفعل مثلما يقول كيرتس .

أسئـــلة

١ – ماذا جرى في المقابلة بـين كواترمن والسير هنري وجود ؟ عمن كان السير هنري يبحث ؟ هل وجد الجواب عند كواترمن ؟ الى اين ذهب جورج كيرتس ؟

٢ – من هو جوزي داسلفستر ؟ ما فحوى الرسالة التي كتبها بدمه ؟

٣ – على ماذا عزم الثلاثة ؟ من اختـاروا لرفقتهم في هذه المغامرة ؟ من كان المنضم الاخير اليهم ؟

٤ – ما هي المخاطر الـــتي تعرضت لها القافلة خلال الرحـــلة الى ستندز كرال ؟

٥ – ما كان الهدف الاول للمغامرين خلال اجتيازهم الصحراء ؟ هـل الماء بهذه الاهمية الكبيرة بالنسبة اليهم ؟ اذكر كيف استطاعوا اكتشاف مكان البئر .

٦ – ما كان سبب موت المرافق فنتفوجل ؟ ماذا اكتشف المغامرون في المغارة ايضاً ؟

٧ – ما هي الحيل التي لجأ اليها المغامرون للنجاة من الموت على ايدي انفادوس وسكراجا وفرقة الشهباء ؟ من اين قالوا انهم جاؤوا؟

٨ — الى اين اقتادهم انفادوس ؟ عم اخبرهم في الطريق ؟

٩ — ما هي الجملة التي تفوه بها اومبوبا ودلت على انه ذو شأن ؟

١٠ — اذكر ما جرى في المقابلة الاولى بين المغامرين وبين الملك توالا . كيف استطاعوا اثبات وجودهم والنجاة من الموت ؟

١١ — بماذا تنبأت جاجول الساحرة في هذه المقابلة ؟

١٢ — كيف كشف اجنوزي عن شخصيته ؟ كيف كان توالا يعامل رعيته ؟

١٣ — ماذا جرى في حفلة الرقص ؟ كيف كانت الساحرات يخترن ضحاياهن ؟ من اختارت جاجول ضحية لها ؟ كيف استطاع المغامرون انقاذ اومبوبا ؟

١٤ — ماذا طلب الزعماء من اومبوبا ومن المغامرين ليعترفوا بأمبوبا ملكاً ؟ ما هو الدليل الذي وعد به جود ؟ كيف عرف ذلك ؟

١٥ — ما هي الخطة التي وضعها انفادوس في حالة ثبوت الدليل ؟

١٦ – ماذا جرى في حفلة رقص الفتيات ؟ من اختار الضحية لتقدم قرباناً للآلهة ؟ كيف تم انقاذ فولاتا ؟ هل صدقت توقعات جود عن خسوف القمر ؟ الى اين قاد انفادوس المغامرين ؟

١٧ – كيف جرى توزيع الجنود استعداداً للمعركة الفاصلة ؟

١٨ – صف المعركة ، وكيف تم لاجنوزي ومرافقيه ورجاله النصر .

١٩ – ماذا طلب الملك توالا من اجنوزي كحق ملكي له في الموت ؟ من اختار توالا لمبارزته ؟ ما كانت نتيجة هـــذه المبارزة ؟ من اعتنى بجود اثناء مرضة ؟

٢٠ – كيف كرم اجنوزي جنود الشهباء الذين بقوا على قيد الحياة ؟

٢١ – لماذا ابقى اجنوزي الساحرة جاجول على قيد الحياة ؟ ما كانت المهمة التي اوكلها اليها ؟ هل كانت مسرورة لذلك ؟

٢٢ – اذكر ما جرى للمغامرين وفولاتا وجاجول في المقبرة . ما كان نصيب جاجول وفولاتا ؟

٢٣ – اين احتجز المغامرون الثلاثـــة ؟ كيف تمكنوا من الخروج ؟ اذكر ذلك بالتفصيل .

٢٤ – صف لحظة وداع اجنوزي للمغامرين الثلاثة .

٢٥ – بمن التقى الســير هنري في الواحة وسط الصحراء في طريـــق العودة ؟

٢٦ – الى اين توجه السير هنري واخوه وجود بعـــد العودة من هذه المغامرة ؟ اين بقي كواترمن ؟

٢٧ – ما مضمون الرسالة التي تلقاها كواترمن من السير هنري ؟ مـــاذا نوى كواترمن اخيراً ؟



رحلة حول
اللؤلؤة
روبن هود
جزيرة الكنز
الكونت دي مونت كريستو
رحلة جلفر
أبطال اليونان
شهرزاد والسلطان
قطار الأشباح
التوأمان
النائم الصاحي
الزنبقة السوداء
ريمي اللقيط
الفرسان الثلاثة
سجين زندا
رسالة من عالم آخر
علي بابا والأربعين حرامي
أليس في بلاد العجائب
عبر المرآة

دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع
طرابلس . لبنان ص.ب ٥٧ هاتف : ٦٩١٩٥٩ . ٦٣١٩٨٩